

♦♦ اقصه

قصص الخلية



محمد السباعي

قصص الخبيرة

♦♦ اقصه

قصص الخلية

محمد السباعي

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

ماتشا

« شاكسبير » شاعر لا يحتاج إلى تعريف ، وتشارلس لام كاتب من كبار الكتاب الإنجليز كان من بعض آثاره التي وضعها شاكسبير فلخصها في موجزات تحفظ للأصل بلاغته وروعته ، وهذه هي إحدى هذه الروايات)

كان ببلدة ميساليني توأمان ، فتى وفخاة ، قد أفرط الشبه بينهما حتى تعذر على العين أن تميز بين أحدهما والآخر لولا تفاوت الزى والملبس . وكنا قد ولدا في ساعة واحدة . وفي ساعة واحدة أوشكا أن يهلكا . ذلك أنهما كانا ذات مرة في رحلة بحرية فأخذتهما العاصفة فتحطمت السفينة على صخرة ولم ينج إلا النزر القليل من ركابها ، وضمنهم الغادة فيولا . فلما وطئوا أديم الأرض وفقدت الأنسة أخاها شغلها الحزن على هلاكه عن الفرح بنجاتها ، فطفقت تبكيه وتندبه . ولكن الربان رفه عنها بقوله إنه أبصر أخاها إيان غرق السفينة قد تعلق بلوح متين حمله على الماء ، وما زال يحمله حتى غاب عن بصره . فسرى عن الفتاة لهذا النبأ وأخذت تفكر فيما عسى أن يصيبها وماذا هي صانعة في تلك الأرض السحيقة ، وسألت الربان ماذا يعلم عن « إليريا » (اسم تلك الناحية) ، فأنبأها أنها في إمرة الدوق أورزينو ، وهو سيد جليل نبيل وقد اشتهر عنه أنفا أنه أولع بالحسنة « أوليفيا » سلية بيت من أعرق البيوتات حسبا ونسبا في ضئضئ المجد وبجوح الكرم ، وابنة سيد توفي منذ عام وتركها وصية على أخيها ، وقد مات ذلك الأخ بعد أبيه . ويزعمون أنها لفرط جزعها على أخيها زهدت في الرجال وحرمت على نفسها عشرة الناس وروئيتهم . فتمنت فيولا لتشابه حالها وحال تلك السيدة في الفجيعة لو أتبع لها أن تعيش معها . وسألت الربان هل يستطيع أن يقدمها إلى أوليفيا فتكون لها خادمة . فأخبرها أن ذلك ليس بكائن لأن السيدة أوليفيا أصبرت أن لا تأذن على نفسها لأحد كائنا من كان، حتى ولا الدوق ذاته . فلما يمست الفتاة من نجاح تلك الخطوة ، حدثت نفسها بسلوك خطوة أخرى هي أن

تتنكر فى زى الغلمان فتدخل فى خدمة الدوق نفسه . ثم استعانت على تنفيذ ذلك بالربان فأعطته نقودا ليجهز لها ثيابا ، وطلبت إليه أن يجعلها شبيهة بملايس أخيها لونا وشكلا . ولما جرى بالحلة الجديدة وارتدتها أفرط فيها شبهها بأخيها فكأنها هو لا ريب ولا جدال . وقد وقعت فيما بعد أغلاط مدهشة وحوادث عجيبة من جراء التباس أحدهما بالآخر ، وإشكال الأمر فيهما على الناس . وكان أخوها سياستيان قد نجا من الغرق أيضا .

ولما كانت للربان معرفة بمحاشية الدوق ، استطاع أن يقدمها إلى ذلك الأمير باسم منتحل هو سيساريو ، فسر الدوق بالغلام أيما سرور وراقه منه رشاقة قده ورقة شمائله ، فألحقه بزمرة غلمانه ووصفائه . وقامت الفتاة فيولا فى زيتها الجديد بأعباء وظيفتها الجديدة خير قيام ، وأظهرت من فرط الطاعة وشدة الإخلاص والولاء لسيدتها ما رفعها عنده درجات ، وأفردها لديه بأخص منزلة وأسمى مكانة . وكذلك أقبل الدوق على غلامه سيساريو فأطلعه على حديث غرامه بالسيدة أوليفيا ، وبته شكواه وشجاءه وما لقي منها من الصد والمهجران ، وما كابد فى سبيلها من ألم الرفض والحرمان . ومن العجب أن ما كان يصفه الدوق للغادة فيولا من فرط هيامه بالسيدة أوليفيا ، كانت فيولا تقاسيه من أجله هو . إذ كان قد شغفها حبا وتيمها غراما . وقد جعلت تعجب للسيدة أوليفيا كيف لم يسبها جمال الدوق أورزينو ولم يصبها حسنه ، حتى قالت له تعريضا وتلميحا إن من نكد الدنيا أن يتعشق فتاة على بصرها غشاوة فهى لا ترى ما تحلى به من باهر الملاحات والمحاسن ، إلى أن قالت : « رأيت لو أحيكت امرأة كحجك لأوليفيا (ولعل هذا هو الواقع) ثم لم تستطع أنت أن تحبها وأعلتها بذلك ، أما كانت جديرة أن ترضى منك حتى بذلك » . بأمثال هذه الكلمات الخفية المعانى كانت فيولا تخاطب الدوق أورزينو ، وعليها كان يجيب بقوله : « من المحال أن يكون على ظهر هذه الدنيا فتاة تعشق حبيبا كما أعشقت أنا الفتاة أوليفيا ، وإن قلب المرأة مهما انفسح لعوامل الحب ما كان إلا أضيق من أن يسع مثل حبي الذى تضيق عنه الأرض والسماء بما رحبت ، وتكل عن حمله الجبال الرواسى ، فمن السفاهة أن يقاس حب امرأة كائنة من كانت إلى حبي لأوليفيا » . ولكن فيولا كانت تعتقد فى أعماق نفسها أن هذا غير صحيح ، إذ أيقنت أن حبها للدوق كان لا

يقول عن حبه لأوليفيا ، ولذلك جعلت تقول « إنى لأعرف خلاف ذلك يا مولاي » . قال أورزينو « وماذا تعرف يا فتى ؟ » قالت فيولا « أعرف ماذا يكون مبلغ حب النساء للرجال ، هن والله أوفى عهدا ، وأصفى ودا ، وقد كان لأبى ابنة أحبت رجلا مثلك ، ولو كنت فتاة لأحببتك . قال أورزينو « وماذا تعرف عن قصة حياتها ؟ » . فأجابت فيولا « ماحياتها إلا قفرة ملساء ، وفلاة جرداء ، موحشة خرساء ، لا شجر ولا ماء ، ولقد كتمت برحاء حبها في سويداء لبها ، وتركت إبرة عقربه تأكل حبة فؤادها خفية فتذبل نضرة وجنتيها ، كما الآفة في تلافيف الوردة تهتك خمارها الأرجواني وتكسوها صفرة الورد . فسألها الدوق هل ماتت تلك الفتاة حيا ؟ ، فأجابت جوابا مبهما .

وبينما هما في هذا الحديث إذ دخل عليهما رجل كان الدوق قد أنقذه قبل أن يكون رسولا إلى أوليفيا ، فقال : « أصلح الله الأمير ، لقد أبت السيدة أن تأذن لى عليها ، ولكن وصيفتها استحملتني هذه الرسالة : « لسوف تحجبين وجهها حتى عن السماء ذاتها حدادا على أخيها ، فتظل كالراهبة مقنعة تمطر حجرتها وابل دمعها الغزير سبع سنين ولاء » . فأطرق الدوق مليا ، ثم رفع رأسه قائلا : « سيساريو ، لقد أطلعتك على سرى ، وأفضيت إليك بجماع أمرى . اذهب إلى دار أوليفيا ، وابغ هناك مدخلا ، وإن أبت فخبرها أنك قد غرست قدمك ببابها ولست بنازعها أبد الآبدين ، أو تأذن لك بالمثل بين يديها » قالت فيولا: « وإذا تم ذلك فماذا أنا قائل لها يا سيدى » قال أورزينو « اشرح هواى وصف لها فرط ماى ، ومثل أمامها مأساتى ، فإن حديث الغرام من لسانك العذب ، مشفوعا بلين ألفاظك وأعطافك ورقة شمائلك وظرفك جدير أن يكون أسرع إلى أذنها وأوقع فى جنانها »

وكذلك انطلقت فيولا ولكن على الرغم منها ، وكيف وما ذهبت إلا لتستعطف فتاة على رجل كانت ترى نفسها أولى به منها ، ولكنه عمل تعهدت بإنجازه فلم تدخر دون إنجازه وسعا .

وبلغ أوليفيا أن فتى بالباب يستأذن عليها . قالت الخادمة « لقد ألح فى ذلك أيما إلحاح ، فأعلمته أنك مريضة فزاد إلحاحا ، فقلت إنك نائمة فتمادى لجاجة ،

فماذا أصنع معه ؟ يخيل لى أنه تحصن من أساليب الرفض جميعا بأمنع درع من الصفاقة . وأنه أصر على لفائفك أردت أم لم تريدى . فانسأقت السيدة أوليفيا برغبة الاستطلاع إلى رؤية ذلك العنيد ، فأذنت له بعد أن تقنعت ثم خاطبته قائلة : أذ رسالة مولاك أورزينو ، فما كان غيره ليعث إلى رسله ؟ فتكلفت فيولاسيماء الرجال من هية وجلال ، وأطلقت لسانها بأساليب البيان الناصع والمنطق الخلاب ، تتحدى بذلك بلاغة المفوهين من جلساء الملوك وحاشية الأمراء ، قالت « يا زين ربات الحجال ، وشرك ألباب الرجال ، وصاحبة عرش الجمال ، خبرينى هل أنت ربة هذا القصر ، فما كنت لأبدد كلماتى هباء منشورا على سواك . فلكم تأنقت فى صوع خطابتى التى أنا ملق على مسامعك الآن ، ولقد استظهرتها فوق ذلك » . قالت أوليفيا : من أين مقدمك يا سيدى ؟ فأجابت فيولا : « إن جواب سؤالك هذا ليس ضمن محفوظاتى ، إنه ليس فى الدور الذى جئت لتمثيله » قالت أوليفيا : « هل أنت بمثل كوميدى ؟ » قالت فيولا : « كلا وعلى أية حال فإن حقيقتى خلاف ما أمثله » (تقصد إلى أنها فتاة فى زى غلام) ثم سألتها فيولا ثانيا هل هى ربة القصر ، فردت على ذلك إيجابا . واشتأقت فيولا أن تبصر وجه تلك الغادة التى هام بها الدوق معشوقها هى ، فقالت : « سيدتى أربنى وجهك » . فلم تغضب السيدة لهذا السؤال على ما فيها من الجراءة . والواقع أن هذه السيدة ذات العظمة والكبرياء ، التى ضاعت آمال الدوق فى رياح نفورها هباء ، قد شغفت لأول وهلة بذلك الفتى المسمى سيساريو (على ما كانت تظن) .

ولما سألتها فيولا أن تريها وجهها قالت أوليفيا : « هل كلفك سيدك ومولاك أن تدخل مع وجهى فى مفاوضة ؟ » . وكأنها نسيت ما كانت عاهدت عليه نفسها من بقائها مقنعة سبعة أعوام ، فقالت وأماطت اللثام عن حر وجهها : « لا جرم سأرفع الستار وأكشف الصورة . ترى أيها الفتى هل أجاد الرسم راسمها ، وافن فى الإبداع باريها ؟ » فأجابت فيولا « وأيم الله إن هو إلا الجمال فى أروع مجاليه ، والحسن فى أبدع مرائيه ، بل الملاحاة معتدلة مزاجا ، والفتنة مفرقة مؤتلفة ، آحادا وأزواجا .

قالت أوليفيا : أو قد جئت ههنا لتنظم فى قصائد الغزل والنسيب ؟ » .

قالت فيولا : إنما جئت أستميلك وأستعطفك . إن مولاي الكونت يحبك حبا يستوجب منك حسن الجزاء ، ولو توجت مليكة الحسن ، ونودي لك أميرة على من فى بالأرض من الغواني ، فحسبك كبرياء ، واذكرى من الكونت قلبا خفافا ، وجفنا دفاقا ، وزفرة بركانا ، ومدمعا طوفانا .

قالت أوليفيا : إن مولاك يعرف ما عندى له . إنى أجله لفضله ، وإن كنت لا أحبه ولن أستطيع ، ولكن خيرنى عن نسبك .

قالت فيولا : « نسى فوق نشبى . إنى من طبقة الأشراف » .

قالت أوليفيا : وبودها أن لا ينصرف الغلام من أمامها :

« اذهب إلى مولاك فأعمله أنه ليس فى طائفتى أن أخبه . وأن لا يبعث إلى رسول إلا أن تكون أنت رسوله »

وكذلك انصرفت فيولا بعد أن ودعت السيدة أوليفيا بقولها : « وداعا أيتها السفاكة الحسنة ! »

ولما انصرفت الفتاة أقبلت أوليفيا تردد هذه الكلمات « إنى من طبقة الأشراف ، هكذا يقول الغلام سيساريو ، وما أراه إلا صادقا ، يشهد بذلك وجهه ولسانه وسائر جوارحه وذكاء قلبه وحدة قواده . » ثم جعلت تمنى لو أن سيساريو كان الدوق . بهذا الكلام وأمثاله طفقت السيدة أوليفيا تناجى نفسها ، ثم بلغ من ذهولها عن شرف منصبها وأنساها فرق ما بينها وبين الغلام سيساريو أن أرسلت وراءه وصيفة تعطيه خاتما من ماس بعله أنه قد نسيه لديها على أنه هدية من الدوق أورزينو ، وقد أرادت بهذه الحيلة أن تخطب وده . وقد أفلحت حيلتها إذ أدركت فيولا غرضها ومرماها ، وبدأت تذكر أن نظرات أوليفيا ونبرات صوتها كانت تتم عن طرب وارتياح ، فألقى فى روعها أن حبيبة سيدها ومولاها قد هامت بها وجدا ، فقالت تحدث نفسها : وا أسفاه ! إن السيدة إن عشقتنى فما عشقت إلا طيف خيال وحلم نائم . فترسل السيدة من الزفرات الخائبة مثل ما أرسل أنا فى حب أورزينو »

عادت فيولا إلى الدوق فأعلمته بفشل المفاوضات ، وأن أوليفيا توئسه كل اليأس من نجاح مسعاه عندها . ولكن الدوق أبى إلا تماديا فى آماله وآلامه ،

وسأل غلامه سيساريو أن يعيد الكرة على أوليفيا فيزورها من غده . فأسفت فيولا لتماذى معشوقها فى ميدان لن ييؤ فيه إلا بالخيبة والخسران ، وبدت على وجهها أمارات الحزن والأسى . ولم يغب ذلك عن أورزينو فقال لها : ويحك يا غلام ! كأتى بعينك هذه قد أدمنت النظر فى صفحة وجه جميل لا تعشق سواه ، ألم تفعل ذلك ؟ » فأجابت فيولا « قليلا يا سيدى » . قال أورزينو « وأى امرأة هذه ، وماسنها ؟ » فى مثل سنك وهيتك يا سيدى » . فضحك الدوق من شغف هذا الغلام الصغير بامرأة أسن منه بمراحل ولها سمرة الرجال وسحتهم . ولكن فيولا كانت فى ضميرها تعنيه هو نفسه لا امرأة تماثله .

ولما زارت فيولا أوليفيا المرة الثانية لم تجد من صعوبات الحجاب ما وجدته أول مرة . ولما مثلت أمام السيدة وفاتحتها فى شأن الدوق قالت أوليفيا : « أو لم أسألك من قبل أن تعرض عن ذكره ؟ لا تكلمنى فيه ، وإن كان لديك طلبية أخرى فيج بها ، أصغ إليك إصغائى لموسيقى الأفلاك فى أبراجها »

هذا الكلام من أوليفيا لم يدع مجالا للشك والريبة ، ولكنها لم يكفها ذلك حتى أعلنت حبها صراحا . ولما رأت الغضب والحيرة يمتزجان فى وجه الغلام قالت « ما أملحه راضيا وغضبان ، وما أحلى عاصفة الغضب تلاعب شفتيه ! سيساريو ! أما وزهرة الربيع فى شجرها ، وخضر العذراء فى خدرها ، لقد أحبتك برغم كبريائك حبا أطاح عقلى ولبى فما أطيع كتماننا » . ولكن عبثا تضرعت وابتهلت ، فقد انطلقت الفتاة فيولا من حضرتها على عجل ، وهى تقسم أنها لن تعشق امرأة أية كانت ما يبقى فيها نفس يتردد .

وما كادت فيولا تنصرف فى دار أوليفيا حتى اعترضها فتى فدعاها للمبارزة ، وكان من عشاق أوليفيا وقد بلغه شىء عن ميل معشوقته إلى غلام الدوق ، فاشتعلت فيه الغيرة فتحين الفرصة وناصبه العداء . فلما أبصرته فيولا يذلف إليها شاهرا سيفه ، أسقط فى يدها وريعت . وإنها لكذلك إذ تقدم إليها رجل كأنه كان يعرفها منذ عهد بعيد ، وأمد مديد ، وكأنه من صفوة خلانها ونخبة إخوانها ، وقد أسرع لحمايتها وإنقاذها ، فأقبل على خصمها يقول « إن كان هذا الفتى قد أذنب إليك فذنبه على رأسى ، وإن أردت قتالا فمعى لأمه » . وقبل أن تتمكن فيولا من شكر هذا

الطاريء على جميل صنيعة ، وسؤاله عن العلة في حسن تدخله ، أقبل رجال الشرطة فقبضوا على هذا الرجل الغريب باسم الدوق ، لحاكمته على جريمة كان ارتكبتها فيما سلف . فالتفت الرجل إلى فيولا وقال « هذا لبحثي عنك في الطرقات ، ولو بقيت مستترا لما أصابني كل هذا . وبعد ، فاعطني الكيس الذي أعرتك إياه منذ برهة فلعلني أحتاج إليه في هذه الورطة ، بيد أنني على مصيبتك أنت أسف منى على مصيبتى . لقد أراك في حيرة ، ولكن هون عليك ولا تحزن » . والواقع أن كلمات هذا الرجل أدهشت الفتاة وحيرت عقلها ، فصرحت أنها لا تعرفه ولا رآته من قبل ولا أخذت منه كيسا ولا غيره ، ولكنها جزاء له على ما أسدى إليها من منة ، تعطيه بضعة دراهم وهو كل ما تملك . فاستشاط الرجل من قولها غضبا ، ورامها بالقسوة والجحود قائلا « هذا الفتى الذى ترونه أمامكم قد أنقذته من مخالب الموت ، ومن أجله وحده قدمت بلدة إيليريا مخاطرا بنفسى » . ولكن رجال الشرطة لم يحفلوا بشكوى أسيرهم ، فمضوا به سراعا وهو يصبح بالفتاة فيولا يدعوها سيباستيان ، ويعاتب سيباستيان هذا الذى كان يتوهمه فى خياله على إنكاره صديقه ونكرانه جميله . فلما سمعت الرجل يتناديها باسم أخيها ، قام بظنها أن هذا الحادث الغامض ربما كان منشؤه التباس شخصها بشخص أخيها ، وأملت أن يكون أخوها هو ذلك الذى يزعم الرجل أنه أنقذه . وكذلك كان الأمر ، فذلك الرجل المدعو أنطونيو كان ربان سفينة ، وكان قد اختطف الغلام سيباستيان من برائن المتون ، وطوافر الموج تطفو به وترسب ، فأكرم مثواه واتخذة حميما ، وآلى لن يفارقه أبدا . ولما رغب الغلام فى زيارة قصر الدوق أورزينو ، لم يزايله ، بل صحبه ، مع علمه أن فى ذلك مخاطرة بحياته إذ كان قد وتر الدوق بجرحه ابن أخيه جرحا بليغا فى مبارزة ، وتلك هى الجريمة التى اعتقل الآن من أجلها .

وكان أنطونيو وسيباستيان قد هبطا بلدة إيليريا قبل التقاء أنطونيو بالغادة فيولا ببضع ساعات ، وكان قد أعطى سيباستيان كيس نقوده ليبدل منه ما شاء فى حاجاته ، وخبره أنه منتظره بالخان ريشما يجول جولة فى المدينة .

وأبطأ سيباستيان فخرج أنطونيو فى طلبه . ولما كانت فيولا تشبه أخاها تمام الشبه صورة وزيا ، انتضى أنطونيو حسامه دفاعا عن الفتى صديقه (كما توهم) ، ولما أنكره الفتى - كما خيل إليه - وجحدته ، اتهمه بتكران الجميل ولا عجب .

ولما ذهب رجال الشرطة بأنطونيو ، أسرع فيولا فرارا إلى قصر الدوق . وما هي إلا هنيهة ، حتى خيل إلى خصمها - وكان لا يزال ثابتا مكانه - أنه يراها عائدة إليه . ولكن ذلك القادم كان في الحقيقة أخاها سياستيان الذي شاءت الأقدار أن يصل إلى تلك البقعة في هذه الآونة . وإذ ذاك باغته ذلك الخصم بقوله « أوقد عدت يا فتى ؟ هاكها » . وقراه ضربة شديدة ، فردها عليه سياستيان مضاعفة ، ولم يك فروقة ترعابة ، ولا منحوب الفؤاد رعيدا ، ثم امتشق صمصامته .

في هذه اللحظة خرجت أوليفيا من دارها . ولما أبصرت سياستيان ظنته معشوقها سيساريو فدعته إلى دارها ، وأبدت له مزيد أسفها ما لقي من اعتداء ذلك الرجل الفظ . فدهش سياستيان في ملاطفة الفتاة له ، دهشته من حملة الفتى عليه ، ولكنه دخل الدار . وسر أوليفيا أن رأت سيساريو - كما توهمت - قد استحال غضبه رضا ، وشماسه إسماحا ، وجماحه إسجاحا .

لم ينكر سياستيان ما أفاضت عليه السيدة من سجال التقريظ والإطراء ، وما غمرته به من شاييب الغزل والنسيب ، بل تقبله بمزيد الرضا والارتياح . على أنه ظن في أول الأمر أنه لا بد أن يكون بعقلها مس من خبل . ولكنه لما أبصر حسن تصرف السيدة في سياسة دارها وتدير شعوتها ، وأنها تبدى حكمة وسدادا في كل شيء سوى ما بادرته به من ذلك العشق الفجائي ، أحسن الإصغاء إليها ، والإقبال عليها ، وتقبل منها ما زفت إليه من آيات التودد والتحبب بمزيد السرور . وانتهزت أوليفيا هذه الفرصة مخافة أن يعود الفتى إلى حاله الأولى من الفرة والصدود ، فافتрحت أن تزوج منه للتو واللحظة . فوافق سياستيان على ذلك ، وجيء بقبس البيت ففقد له عليها . ولما تم ذلك ترك الفتى زوجته أوليفيا هنيهة ليبحث عن صديقه أنطونيو فينمى إليه ما ساقه إليه الحظ من هذه النعمة الجزيلة .

وفي هذه الأثناء خرج الدوق أورزينو لزيارة أوليفيا . ولما اقترب من دارها ، أتاه رجال الشرطة بالربان أنطونيو معتقلا ، وكانت فيولا مع سيدها الدوق ، فلما أبصرها أنطونيو - وكان لا يزال يحسبها سياستيان - شرع يث الدوق شكواه ،

وكيف أنقذ ذلك الغلام من الفرق واستصحبه ثلاثة أشهر لم يدخر خلالها وسعا
فى إكرامه والاحتفاء به .

فى هذه اللحظة خرجت السيدة أوليفيا من دارها ، فانصرف الدوق عن
حديث أنطونيو إليها قائلا « هذه السيدة أوليفيا إن هى إلا جنة الفردوس تمشى
على أديم الأرض . أما عن حديثك يا هذا فما هو إلا هذيان مجنون . هذا الغلام
فى خدمتى منذ ثلاثة أشهر لم يكذب يفارقتى فى خلالها طرفة عين » ، ثم أمر بأنطونيو
أن ينحى جانبا .

وهنا أعرضت السيدة أوليفيا عن الدوق ، وأقبلت على فيولا تكيل لها كلمات
التودد والحنان جزافا مما أوغر صدر الدوق على غلامه سيساريو ، إذ اتهمه بالغدر
والخيانة ، فهدده بأفطع التنكيل والنكابة ، ثم هم بالانصراف وهو يقول لفيولا
« اتبعنى أيها الغلام ، سترى كيف يكون عقابى » .

ومن عجب أن فيولا برغم ذلك الوعيد الذى ربما كان فى تنفيذه الموت
الزوام ، تبعت سيدها مدفوعة بعامل حبها الشديد . ولكن أوليفيا ما كانت لتترك
زوجها سيساريو فريسة فى براثن الدوق ، فصاحت « أيان يذهب حبيبى
سيساريو ؟ » . قالت فيولا « فى أثر من هو أحب إلى من روحى الذى بين
جنبى » . ولكن أوليفيا حالت دون انصرافهما بتصريحها أن سيساريو زوجها
الشرعى ، واستدعت ألقسيس فشهد أنه منذ ساعتين زوج السيدة أوليفيا من هذا
الفتى . وعثا حاولت فيولا تكذيب هذه الشهادة ، وأمن الدوق أن فتاه قد سلبه
قرة عينه ومتعة حياته . وإذ قد علم أنه لا راد لهذا القضاء ، استسلم للقدر وودع
حبيبته الغادرة وغلامه المناق زوجها ، وأندره أن لا يريه وجهه آخر الأبد .

وفى هذه اللحظة قامت أمامهم معجزة من أعجب المعجزات . وذلك أن
سيساريو آخر قدم عليهم وخاطب أوليفيا بلفظ « زوجتى » . وسيساريو الجديد
هذا هو سياستيان زوج أوليفيا الحقيقى . وبعد أن سكن قليلا ما تولاهم من
الدهش لرؤية شخصين لهما وجه بعينه ، وصوت بعينه ، وزى بعينه ، تخاطب
الأخوان وتعارفا ، واعترفت فيولا أنها فتاة وأنها أخته متكررة فى زى الذكران .
ولما انخسر القناع عن كل هذه الأغلاط التى سببها فرط تشابه الأخوين ،

أقبل الجميع يضحكون مما اتفق للسيدة أوليفيا من تعشقها فتاة مثلها ، ورضيت أوليفيا بقسمتها حينما رأت أنها اقترنت بالأخ بدلا من الأخت .

وكذلك انقضت آمال أورزينو من ناحية أوليفيا . وبانقضاء آماله ، أخذت غمرة غرامه تنجلي وتنقشع ، وشرع يفكر في أمر غلامه سيساريو الذى استحال عادة . فأقبل يتأمل فيولا بعين ملؤها الإعجاب ، ثم تذكر سالف خدمتها ، وجزيل وفائها وإخلاصها ، وما كانت تعرض به كثيرا من حبها إياه وولوعها به ، من تلك الكلمات الغامضة الخفية التى كان يراها إذ ذاك ألغازا ، فأصبح الآن يفقه مغزاها ومرماها .

عندئذ اعتزم الدوق أن يتخذ فيولا زوجة له فقال لها يخاطبها بصيغة المذكر ، وكأنه لطول اعتيادها لم يستطع تغييرها لأول وهلة « أيها الغلام سيساريو . جزاء على فرط إخلاصك وولائك ، وما تبين لى من شدة افتتانك بى وهيامك ، سأتخذك زوجة لى ، فتصبح سيدة سيدك والدوقة أورزينو » .

الشرية

كان « ليونتيس » ملك صقلية وزوجته المليحة العفة الطاهرة « هرميوني » يعيشان على أتم واثم ووفاق . وكان هذا الملك لفرط شغفه بزوجته واستمتاعه بأفانين محاسنها الجمّة ، يرى أنه قد نال كل المنى سوى أمنية واحدة كان ينزع إليها فؤاده أحيانا ، وتلك هي أن يحظى مرة بقاء زميل صباه ورفيق حدائته « بولكسينيز » ملك بوهيميا . وكان قد نشأ معه منذ الطفولة إذ ضمتها مدرسة واحدة قبل أن يجلسا على عرشى أبويهما . وكان قد مضت على ذلك العهد سنون عدة جعلها يتبادلان خلالها الرسائل والتحف .

وأخيرا قدم « بولكسينيز » ملك بوهيميا على إثر الدعوات المتابعة من صديقه إلى بلاط مملكة صقلية ، ليؤدى للملكها واجب الزيارة .

فسر به صديقه أشد سرور ، وقدمه إلى زوجته الملكة وعدد لها محامد سجايها ومحاسن مزايها . وجعل يتذكران معاهد الصبا وملاعب الطفولة ، ويقصان من أحاديثها العذاب على مسامع الملكة « هرميوني » ما كان يملؤها عجبا وطربا .

ولما هم ملك بوهيميا بالعودة إلى بلاده ، سأل « ليونتيس » زوجته الملكة أن تضم صوتها إلى صوته فى الإلحاح على ضيفهما أن يطيل أمد بقائه برهة فأجاب سؤلها .

وهنا بدأت مأساة تلك الملكة الكريمة العفة إذ قال الملك « ليونتيس » فى نفسه « إن ضيفى « بولكسينيز » قد رفض رجائى حين سألته إطالة المكث عندى ، فلما استمالته زوجتى بعذوبة أفاظها وحلاوة نغماتها رقى قلبه ولان وأجاب طلبها »

وعلى الرغم من اعتقاده العفة والطهر والوفاء فى زوجته وصديقه سواء ، استحوز عليه وأمتلكه شيطان الغيرة الجهنمية ، وجعل كلما رأى من زوجته آية عطف جديدة على الضيف ازداد لهيب غيrote احتدما . وبعد أن كان أير الناس

طرا بالزوجة أصبح أقسى العالمين قاطبة ، وأحقدهم على الصديق والزوجة ، فاستحال وحشا ضاريا ، وسبعا عاديا .

واستدعى « كاميلو » أحد وزراء الدولة وأطلعته على حديث شكه وارتياحه ، ثم أمره أن يسم « بوليكنسينز » . ولما كان « كاميلو » هذا رجلا تقيا صالحا ، وكان يعلم أن تهمة الملك وريثته لا أساس لها من الصحة ، أفضى بجلية الأمر إلى الضيف « بوليكنسينز » واتفقا على الهرب معا من بلاد صقلية .

وقد أنجح الله مساعها فوصلتا سالمين إلى بوهيميا ، وهنالك أصبح « كاميلو » صديق الملك « بوليكنسينز » ووزيره .

فأضمرت هجرة « كاميلو » لهيب الحنق في صدر الملك « ليونيس » ، فعمد إلى حجرة زوجته فألفاها تلاعب طفلها ماميلاس « وهو يسليها ويمتعها بإحدى قصصه الشائقة . فأمر بالطفل أن ينحى وبالألم أن تسجن .

وكان الطفل « ماميلاس » شديد المحبة لأمه ، فلما رأى ما حل بها من الإهانة والسجن ذاب قلبه الصغير كمدا ، وأضناه الهم حتى ضمير وهزل وفقد شهية الطعام ولذة التام . وجعل أهل البلاط يحسبونه في عداد الموتى ..

وأرسل الملك اثنين من رجال دولته إلى معبد « أبولو » ليستطلعا من الكاهنة حقيقة أمر زوجته ، وهل كانت غادرة أو وفية .

وما كاد يمضي على الملكة في السجن بضعة أسابيع حتى جاءها المخاض فولدت صبيرة . فخفف منظر هذه المولودة البديعة من برحاء أحزان الأم ، وأقبلت على الطفلة تناجيها .

« أيتها السجينة الصغيرة ، الله يعلم أنى وإياك فى البراءة سواء » ..

وكانت السيدة « بولينا » الكريمة العنصر السامية الروح صديقة للملكة ، وقد أذاب قلبها ما أصاب تلك الطاهرة النقية ، فعمدت إلى السجن وفاوضت الحارسة فى أن تخبر الملكة نبأ قدومها ، وأن تبث إليها بالمولودة لتذهب بها إلى الملك لعله إذا أبصر فلذة كبده رق ولان وندم على ما كان .

فدخلت الحارسة على الملكة ، وما هى إلا لحظة حتى عادت بالمولودة .

وتناولت السيدة « بولينا » حملها الضئيل العليل ، ودخلت به على الملك

فوضته بين يديه ، ثم ألقت خطابا مسهبا دفاعا عن الملكة « هرميوني » لامتة
فى سياقه على فرط قسوته وغلظته ، وسألت الرحمة والحنان على ابنته وزوجته
البريختين .

ولكن هذا الخطاب المؤثر الحماسى لم يزد الملك إلا عتوا وطغيانا ، فأمر
بإخراج السيدة النبيلة من حضرته .

وتركت هذه السيدة عند خروجها الطفلة بين يدى أبيها ، وهى تحسب أنه
إذ خلا إليها بعد هنيئة أخذته الشفقة وحركته عوامل الحنان فرق إلى صغرها
ونزاهتها ، وعطف على ضعفها وبراءتها .

ولكن أخطأ ظنها . فما هو إلا أن غادرت المكان حتى أمر الملك أحد رجاله
أن يذهب بالطفلة فيركب بها متون البحار ، ثم يلقياها على ساحل إحدى البقاع
الناثية .

ولكن الذى كلف بهذه المهمة كان رجلا غليظ القلب ، فنقد أمر الملك
بجذافيره .

لقد بلغ من شدة تسلط الغيرة على عقل الملك أنه لم ينتظر عودة الرسولين من
سفارتهما إلى الكاهنة ، فأسرع إلى استدعاء الملكة لمحاكمتها علنا أمام رجال الدولة
والبلاط قبل تمام شفائها من النفاس . وبينما هذه الملكة الكريمة ماثلة أمام قضائتها
مثول الآثمين المجرمين ، دخل الرسولان ورفعا إلى الملكة فتوى الكاهنة فى ظرف
مختوم ، فأمر بفض الخاتم وتلاوة الرسالة علنا . فإذا فيها « هرميوني » بريئة
و « بوليكسينيز » برئ و « ليونيتس » ظلوم غشوم جبار عنيد ، وسيعيش بلا
وارث ما لم يرد المفقود . فلم يعبأ الملك بفتوى الكاهنة ولم يكثرث ، وقال إنها
أكذوبة لفقها أنصار الملكة تعمية وتضللا ، وأمر القضاة بمواصلة التحقيق . وفى
تلك الآونة دخل أحد الخدام فأنبا أن « ماميلاس » ابن الملك ، لما بلغه نبأ محاكمة
أمه أصابه من الهم والكبد ما أودى بحياته .

فلما سمعت الملكة ذلك خرت مغشيا عليها ، عند ذلك دبث الرحمة فى فؤاد
الملك وسرى الندم إلى قلبه ، فأمر صاحبات الملكة أن يحملنها ثم يبدن أقصى
الجهد لإذهاب غشيتها . ولكن بولينا ما لبثت أن عادت إلى الملك فأبلغته أن

عند ذلك تبين له أن زوجته كانت بريفة ، فندم أشد الندم على ما كان من فرط قسوته عليها . واتضح له أن كلام الكاهنة كان حقا . وعلم يقينا أنه - كما قالت الكاهنة - « ما لم يرد المفقود (أى ابنته الصغيرة) عاش بلا وارث » إذ كان ابنه قد مات . وود لو ترد إليه ابنته ويسلب ملكه .

وكانت السفينة التي ركبها الرجل المكلف بإقصاء المولودة قد أصيبت بعاصفة قذفت بها على ساحل بوهيميا - مملكة « بوليكسينيز » الصالح البار . وهنا أرسى الرجل وطرح الطفلة الصغيرة . وفيما هو عائد إلى صقلية خرج عليه دب من إحدى الغابات فمزقه . وكذلك أصاب جزاءه .

وكانت الطفلة مكسوة أبهج حلة ، محلاة بأنفس الجواهر وقد ألصقت بها ورقة مكتوب عليها « شريدة » مع كلمات أخرى تدل دلالة خفية على شرف نسبها ورفعة شأنها .

وما لبثت الطفلة المسكينة أن عثر عليها أحد الرعاة وكان رجلا رحيمًا ، فاحتمل « شريدة » الصغيرة إلى زوجته فعنيت بتربيتها أشد عناية . وتناول الراعي شطرا من حلى الطفلة وجواهرها فباعه واشترى بثمانه قطعة من الماشية فانتعش وأثرى ، وتبنى الصبية فنشأت وهي لا تعرف لنفسها أبا غيره .

وكذلك شبت « شريدة » وترعرعت واستحالت عادة فتاة . وهي وإن لم تنل من التأديب والثقافة أكثر من حظ بنات الرعاة ، لقد تحلت من محاسن سجاياها الفطرية وحلاوة شمائلها الغريزية ، بما أغنى عن تأديب أرقى المربيات . فمن يراها لم يشك في أنها ربيبة بيت مملكة أو إمارة .

وكان للملك بوهيميا نجل فريد يدعى « فلوريزيل » فبينما كان هذا الأمير الصغير في بعض جولاته أبصر الغادة « شريدة » بجوار دار أبيها الراعي (كما كان يظن) فراعه من حسنها الفتان ما راعه ، ومن ذلك الآن جعل يتردد على الراعي في زى مستعار واسم متحلل « دوريكليز »

ولما كثر تغيب « فلوريزيل » ، قلق أبوه وأوجس عليه خيفة فأذكى عليه الأرصاد والعيون ، فما لبثوا أن أتوه بنبا غرام ولده بابنة الراعي .

فاستدعى الملك وزيره « كاميلو » ذلك البر الكريم الذى نجاه من عائلة « ليونيتس » ، وسأله أن يصحبه إلى منزل الراعى :

وصل الملك ووزيره إلى منزل الراعى وقت الاحتفال بعيد جز الماشية ، وكان من خصائص هذا العيد الترحيب فيه بكل طارق وإن كان غريبا مجهولا . فانضم الطارقان إلى أهل الدار وشاطراهم المرح والخبور .

وكانت الموائد منصوبة والكؤوس مصفوفة . وبعض الشبان يرقصون فى ساحة الدار والبعض على الباب يشترون ضروبا من الأوشحة والمناطق والقفازات من بياع جواله .

ولكن ابنه « فلوريزيل » كان قد انتبذ بمعشوقته « شريدة » زاوية من المكان ، وكأنه قد اكتفى من جميع متعات العيد ومناعمه بلذة الخلوة بحييته والاستمتاع بعذوبة مناجاتها .

وكان الملك من شدة التكر على حال لا تمكن ابنه من معرفته ، فتقدم حتى صار بمسترق الحديث ومستمع النجوى فملكه العجب والإعجاب بحلاوة حوار الفتاة حتى قال لوزيره كاميلو « لهذه أحسن وأقن من شاهدت من فتيات الطبقة الوضيعة . وما من لفظة أو حركة أو إشارة تصدر عنها إلا وفيها معنى أسمى منها وأسمى - ومعنى يجلب عن مثل هذا المكان ويشرف . »
وقال كاميلو « حقا إنها ملكة الألبان والأجبان . »

وأقبل الملك على الراعى فسأله « خبرنى يا صاحبى من ذلك الفتى الوضىء الذى يتحدث إلى ابنتك ؟ »

فأجاب الراعى « إنهم يدعونه « دوريكليز » وهو يزعم أنه يتعشق ابنتى . على أنه لا يعلم أيهما بصاحبه أشغف ، ولو استطاع دوريكليز أن يحصل عليها إذن لسأقت إليه من الثروة مالا يخطر له على بال (يريد بذلك بقية الحل والجواهر التى تركها لتجهيزها عند الزواج) .

والفتى الملك إلى ابنه فقال : « إنك عن العيد وأهله لفى شغل . إبنى حينما كنت شابا مثلك لم أكن أضن على حبيبتى بالتحف والهدايا . وأنت قد تركت بياع اللعب يذهب ولم تشر لصاحبتك شيئا . »

فقال الفتى وهو لا يحسب أنه يخاطب أباه :

« أيها الشيخ إنها لا تحفل بأمثال هذه التوافه ، إن ما تنتظره من تحفى وهدياتي
مكتون لها فى أعماق قلبى . »

ثم التفت إلى « شريدة » فخاطبها قائلا « اسمعى يا شريدة إنى أشهد هنا
الشيخ الذى أحسب أنه خبر العشق وجربه على أنى أعطيك عهد الله وميثاقه أن
أرضاك زوجة إذا ارتضيتى بعلا . أيها الشيخ كن شاهدا على هذا الزواج .
فصاح الملك مغضبا ، وأعلن شخصيته الحقيقية .

« بل شاهدا على الطلاق يا أحمق » ثم طفق يعنف ابنه أشد تعنيف ، ويعجب
من جرأته على عزيمة الزواج من صبية حقيرة ابنة راع . وانهاه على الحسناء
بالمساب ، وترعدها وأباها بالقتل إن هى أباحت لابنه أن يطمأ سدة دارهم بعد
ذلك .

ثم انصرف الملك مغضبا ، وأمر « كاميلو » أن يتبعه بالأمير « فلوريزيل »
لقد أثارت مطاعن الملك وقوارصه عوامل الحماية الملكية فى صدر الفتاة ،
فقالت : « إنى لا أعبا بتهديدات الملك ولو كان فيه هلاكنا . ولقد هممت والله
أن أقول له إن الشمس التى تشرق على قصره تشرق على كوخنا ، وأنا وإياه عند
الخالق سواء . ولكنى أرانى بعد قد انتبهت من أحلامى وأدبرت عنى تلك الدولة
التي كانت مقبلة ، فدعنى وشأنى الآن يا سيدى سامضى لأحلب أبقارى وأبكى » .
فافتن الوزير كاميلو بما أبدته الفتاة من العزة والإباء . ولما رأى أن غرام
الأمير الصغير ليس مما يزيله غضب الآباء وأنه ماض ولا شك على عزمته مهما
كانت العاقبة ، فكر فى حيلة ينقذ بها العشيقين ، ويلغ نفسه أمنية طالما خالجت
قلبه .

لقد كان يعلم أن « ليونتيز » ملك صقلية قد ندم على ما فعل فلا ضير الآن
من مواصلته ، هذا فضلا عما كان يذيب من قلب ذلك الوزير من فرط الحنين
إلى وطنه ، فاقترح على العشيقين أن يذهب بهما إلى مملكة صقلية حيث يستظلان
برعاية ملكها ، ويسألانه الشفاعة لهما عند صديقه ملك بوهيميا لعله أن يسمح
بزواجهما .

فوافق الكل على هذا الاقتراح ، وجهاز كاميلو أسباب الرحيل وأباح للراعي أن يصحبهم .

فأخذ الراعى بقية حلى الفتاة وجواهرها وثياب طفولتها ، والورقة التى كانت بها ملصقة .

ووصل الجميع إلى بلاط « ليونتيي » ملك صقلية ، فرحب هذا الملك بوزيره القديم « كاميلو » وبمن كان فى صحبته وأكرم مثواهم ، وكان لا يزال فى حذاد على زوجته وغلामه .

لقد أقبل يتأمل محاسن الفتاة « شريدة » ، وكانت قد استغرقت لبه واستولت على مشاعره ، ولمع فيها مشابه من زوجته « هرميوني » فتجددت لوعته وتأججت حرقته وسالت عبرته . وقال « قد يكون لى ابنة كهذه لو لم ألقى بها إلى التهلكة » .

ثم التفت إلى « فلوريزيل » فقال « ولقد خسرت أيضا صديقة أهلك وصدافته ، وما أشد شوقى إليه الآن ، لوددت لو رأيته وأموت من بعدها »

ولما بلغ الراعى ما أبداه الملك من شدة الإقبال على « شريدة » وقوله إن فيها مشابه من زوجته الفقيدة ، وأنه قد كان له طفلة فأمر بإخراجها من مملكته واطراحها بإحدى القيافى والقفار ، أخذ يقارن تلك القصة بقصة « شريدة » . لا بد أن تكون هى ابنة الملك المفقودة .

وكذلك تقدم الراعى إلى الملك فقص عليه فى حضرة « فلوريزيل » و« شريدة » و « كاميلو » والسيدة الوفية الأمينة « بولينا » حديث عثوره على الطفلة ملقاة على ساحل اليم ، ثم أبرز الثياب التى كانت عليها يومذاك فعرفتها السيدة « بولينا » ، وأقرت بأنها عين ما كانت تكتسى يوم أخذتها من أمها ، وأبرز جوهرة تذكرت بولينا أن هرميوني كانت علقته فى جيب الطفلة ، وأبرز الورقة المكتوب عليها لفظة « شريدة » وهى التى كانت « بولينا » أبصرت الرجل المكلف بتشريد الطفلة يكتبها يده قبل ارتحاله . وهكذا لم يبق ثمت مجال للشك فى أن « شريدة » هى ابنة الملك ، فما أعظم سرور « بولينا » وفرحة الملك « ليونتيي » . على أنه أذاب قلبه وفت كبده أن أمها ليست على قيد الحياة ففسر بروية ابنتها . وقال :

« ما أشد فرحى بك يا بنتى ! .. ولكن أملك ! .. أين أملك ؟ »

قالت بولينا للملك إن لديها تمثالا للمرحومة الملكة « هرميوني » قد أتم صنعه أنفا المثل الإيطالى « جوليو رومانو » وقد بلغ من فرط مشابهته للملكة أنه لو تفضل بالذهاب إلى دارها فشاهده ، لحسب أنه الملكة نفسها وليس بتمثالها ، فساروا جميعا إلى دارها .

ولما أرخت بولينا النقاب عن التمثال ريع الملك لما أبصر من فرط مشابهته لزوجته ، وتجددت أشجانه ولبث برهة طويلة لا ينطق ولا يتحرك .

وأخيرا انطلق لسانه فقال « كذلك كانت وقتها وروعة جلالها حين خطبتها وهى عذراء . ولكن هرميوني لم تكن من كبر السن كما يسدو على هذا التمثال » .

قالت بولينا : لقد تعمد النحات أن يجعل هذه الدمية مثالا للملكة هرميوني كما كانت تكون لو أنها عاشت إلى الساعة ، وهذا أدل على براعته وحذقه . ولكن دعنى أعطى التمثال لئلا تحسب أنه يتحرك » .

قال الملك « لا تغطيه ! .. واحر قلباه ! .. ياليتى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا . انظر يا كاميلو ألا تكاد تظن أن هذا التمثال حى يتنفس وكأن بعينه بريقا ولآلاء » .

قالت بولينا لأحجب التمثال يا مولاي . إنى أخشى أن يعزب عقلك من شدة الطرب فتظن التمثال حيا » .

قال الملك : ليتنى أظن ذلك . وليت ظنى صحيح ، بيد أنى إخال أن نسيما يهب على من تلقاها . إنى أريد أن أقبلها فلا تسخروا منى .

قالت بولينا لا تفعل يا مولاي . إن الصبغة الحمراء التى على شفيتها لا تزال رطبة ، فلن لثمتها لتلوثن شفئك زينا . أتأذن فى تغطيتها ؟

قال الملك « كلا بل لتبقيتها مكشوفة عشرين عاما . »

قالت « شريدة » وكانت لا تزال منذ أبصرت التمثال راکعة أمامه تتأمل عاسن أمها الفقيدة « ولأربعين مدة هذه العشرين عاما أرنو إلى أمى العزيزة بلا ملل ولا فتور » .

قالت بولينا : « إما أن تدعني أغطي التمثال ، أو تهتئ نفسك لما هو أروع وأدهش ، لأن في استطاعتي أن أجعل الدمية تتحرك وتهبط من نصابها وتمسك بيدك » .

قال الملك وهو يخال أنه في حلم « كل ما توحين إليها أن تأتيه من حركة يسرنى أن أنظره ، وكل ما تملين عليها أن تلفظه من قول يسرنى أن أسمعه » . وكانت بولينا قد أعدت في غرفة مجاورة فرقة من المطربين ، فأمرتهم أن يعزفوا على الآلات ألقانا شجية . وما بدأت الأوتار تترنم حتى شاهد القوم عجباً ، إذا أبصروا التمثال يهبط عن نصابه ويسعى حتى دنا من الملك فطوق جيده بذراعيه ، ثم حرك شفتيه يدعو لزوجه وابنته بالخير والبركة . ولا عجب ، فإن التمثال لم يكن إلا الملكة نفسها حية سالمة .

والواقع أن بولينا لم تقبل حقاً حين أبلغت الملك نوى زوجته سالماً ، إذ لم تجد خلاف ذلك وسيلة لإنقاذها من شره . ومنذ ذلك الحين عاشت هرميوني بدار بولينا في خفية ، وقد أصرت على كتمان أمرها عن زوجها حتى يعثر على ابنتها الضائعة ، لأنها - وإن كانت قد اغتضرت له سيعاته إليها نفسها - لم تغتفر جنايته على الطفلة البريئة .

ولما أبصر ليونتيث نعمة الله المضاعفة ، إذ رد عليه زوجته وفاته بعد انقطاع كل منهما ، كاد عقله يذهب من الفرح .

وشكر الملك وزوجته الأمير فلوريزيل لحبه ابنتهما على ما كان يعرف من حقارة شأنها وضعة منصبها ، وشكرا الراعي لعنايته واحتفاظه بطفلتها ، وشكر « كاميلو » و « بولينا » المولى جل وعلا إذ أبقاهما حتى أبصرا مساعيهما قد أقضت إلى أحسن خاتمة .

وكأن الله أراد أن يتم عليهم نعمته ، فأدخل عليهم في تلك اللحظة « بوليكسينيز » ملك بوهيميا . فإن هذا الملك لما افتقد ابنه ووزيره ، وكان قد آلى من « كاميلو » شدة التلهف والتحنان إلى وطنه - رجح أن يكون رحل بابه إلى صقلية ، فشخص إليها ، ووافق حضوره تلك الساعة - أسعد ساعات « ليونتيث » .

فشاطرهم سرورهم وغبطتهم ، وغفر لصديقه ليونتيّز ما كان من سالف
مساءته ، فتوثق ما كان قد رث من حبال مودتهما ، واخضر بينهما الثرى ،
واستضاءت ظلمة الوحشة . ولم يجروا ملك بوهيميا على القول بأن « شريدة »
ليست كفؤا لنجله ، فما هي الآن بتلك السوقية الحفيرة حالبة الأبقار ، ولكن
وارثة عرش صقلية .

أكسير الحياة

كان الشيخ « أبو نبيل » العالم الفيلسوف يسكن برجا عاليا بمدينة « بلخ » ، حيث كان يعكف على دراسة الكيمياء والعلوم الطبيعية ، ولم يدخل معمله الكيميائي إنسان قط ، ولكن الفيلسوف نفسه لم يتجنب عشرة الناس - بل على عكس ذلك ، قد كان له سبعة تلاميذ من أشرف بيوتات المدينة ، يطلقون عنه في أوقات محدودة شتى صنوف العلم ، ما عدا الكيمياء وفنون السحر التي آثر بها نفسه .

ولكنه ذات يوم استدعى إلى غرفته الخاصة تلاميذه السبعة ، فدخلوها متهيئين متعجبين ، على أنهم لم يجدوا بها غير الشيخ أستاذهم قائما وراء متضدة قد صف عليها سبعة أقذاح من البلور ، مملوءة بسائل صاف يشبه الماء .

وقال الأستاذ : « أبنائي الأعزاء ، يزعم الناس أنني لم أدخر جهدا في سبيل استجلاء كل غامضة من أسرار الطبيعة ، وحل كل مشكلة معضلة مما قد أعجز من سبقني من العلماء والفلاسفة من كل جنس وملة ، هذا ما يزعم الناس وإنه لحق ، وإنه لقصدى ومطلبي منذ غشيت ساحة العلم وطرقت بابه . وحتى ظهر الأمس لم يكن حظي من بغيتي بأكثر من حظ من سبقني ، ولكنني في ظهيرة الأمس وفقت إلى ما لم يوفق إليه أحد من السلف ، لا أقول إنني وفقت إلى كل ما أنشد وأقصى ما أبتغى ، ولا أدعى أنني اهتديت إلى سر صناعة الذهب أو أنني أوتيت خاتم سليمان أو معجزة عيسى ، إحياء الموتى ، ولكنني وإن كنت لا أستطيع رد الحياة ، لمستطيع استبقاءها وتخليدها - أجل ، لقد اهتديت إلى إكسير الحياة

وسكت الفيلسوف يستوضح أثر كلماته في وجوه القوم ، فتبين فيها الدهشة العظيمة ، والإيمان المحض بصدق مقاله ، وبارقة أمل في أنهم ربما أصبحوا شركاء له في ذلك الاستكشاف الباهر ، وضرب الأستاذ لهم على نغمة ذاك الأمل ، فخطبهم قائلا : « وإنني لمرتاح إلى الإفضاء لكم بهذا السر ، إن شئتم » فانبعثت من أفواههم صيحة سرور هائلة .

واستأنف الفيلسوف الكلام ، قال :

ولكن اذكروا أن هذا السر - كغيره من الأسرار - له آفاته كما له محاسنه ،
وستدفعون فيه ثمنه - وإنه لثمن - لو تعلمون - باهظ ، فادح . ولتعلمن بعد أن
ما أنا مملية عليكم من الشرائط ليس من افتراضى ووضعى ، وإنما هو ما أوجت
به شياطينى ، ثم لا مناص للمودع هذا السر من تنفيذ تلك الشرائط - ولتعلمن
أيضا أنى لا أريد استثمار هذا السر فى تخليد حياتى ، فأنى فى الحياة جد زاهد :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا لا أبأ لك يسأم

وإن ما لقيت من كوارث الدهر ونوائبه ، ليجعلنى على اختراع وسائل تقصير
الحياة أحرص منى على ابتداء أسباب إطالتها ، وحبذا لو كانت تجاربكم خلال
العشرين عاما التى عشتموها ، قد أدتكم إلى عين هذه النتيجة »

لم يكن من بين هؤلاء العشرين شابا إلا من كان يقر ويعترف بأن الحياة إن
هى إلا باطل وغرور ، وأضاليل وأوهام ، وأضغاث أحلام ، وتعب فوق ذلك
وعناء ، وبؤس وشقاء ، هكذا مذهبه الفلسفى فى الحياة ، وتلك نظريتهم ،
ولكن شتان ما بين النظريات والسلوك ، ويا بعد ما بين العلم والعمل ، وما
أضعف البراهين العقلية إزاء الغرائز القطرية ، لقد صرح التلاميذ جميعا أنهم
مستعدون لقبول كل شرط واحتمال كل عبء واقتحام كل خطر ، فى سبيل
الاطلاع على ذلك السر الرائع .

« فليكن كما تريدون ، والآن أصغوا إلى الشروط . على كل منكم أن يختار
أعتباطا ، ثم يتجرع قدحا من هذه الأقداح السبعة التى لا يوجد إكسير الحياة إلا
فى واحد منها ما لست لأخبر قهيا من صنوف السموم أقتلها وأرداها ، وأسرعها
وأوحاها ، مما لا ينجح فيه علاج ولا يعرف له ترياق ، - فأما الصنف الأول ، فذاك
يشعل فى الأمعاء حرقة تأتى عليها كالنار الموجهة ، وأما الثانى فيرسل فى العروق
والأعصاب زمهيرا يسلبها الحياة ، والثالث يقتل بالنوبات الجنونية ، وأخف ميتة
من هذه وأروح قتلة ، الصنف الرابع ، فذلك يخرب صريعه فى الحال ميتا كالمصعوق ،
وأهون من ذلك ، الخامس ، فعلى شاربه يسقط نومة لا يتب منها أبد الدهر ، فيطيح
فى هاوية النسيان ، ولكن الشقى من اختار السادس ، فذاك ينسل الشعر عن رأسه ،

ويسقط الجلد عن جسده ، فيتراخي به الأجل في أوصاب اليمه ، وأدواء معضلة عقيمة ، رمة حية بالية ، وأشلاء معذبة لافانية ولا باقية ، وأما القدح السابح ، فذا البغية المقصودة ، والأمنية المنشودة ، فمدنوا معا أيديكم إلى هذه المنضدة ، وليتناول كل منكم بقوة ، وليتجرع بحمارة وفتوة ، تلك الكأس التي تديرها عليه يد القدر ، فسيجد أن في أثرها فيه عنوان حظه ۝

فنظر التلاميذ السبعة بعضهم إلى بعض دهشين مبهوتين ، ثم وجهوا نظراتهم جميعا إلى أستاذهم راجين أن يلمحوا على صفحة وجهه الوقور أدنى شاهد يدل على أنه يمزح فيما يقول ، ولكن صفحة وجهه كانت غفلا من كل علامة أو دلالة ، ثم حولوا أبصارهم أخيرا إلى السبعة الأقنح ، يؤملون أن يستوضحوا بها ولو أدق ميزة وأغمضها ، يعرف بها الإكسير من السموم ، ولكن الأقنح كانت في ظاهرها سواسية ، كل يحتوى سائلا شفافا ، كالماء صافيا .
وقال الأستاذ « أبو نبيل » :

« ما بالكم متحيرين مترددين ؟ وما يمنعكم من تناول الأقنح ؟ لقد كنت أتوقع أن أرى اللحظة ستة منكم يعالجون سكرة الموت ! »

هذه الكلمة من الأستاذ لم تكن قط مما يشجع أولئك الحائرين أو يغريهم بالإقدام على ذلك الخطر الجسيم ، ولقد مد بالفعل اثنان من أشجعهم أيديهما إلى منتصف المسافة تلقاء لأقنح ، ولما لم يحلا لباقون حذوهما ، أمسكا في ارتباك وحيرة وأحجما .
وأخيرا قطع أحدهم سلك هذه السكة الطويلة المربكة ، بقوله :
« لا تحسبن أيها الأستاذ ، أنني شخصا أعلت أدنى أهمية على هذه الحياة التافهة ، أو أقيم لها وزنا ، ولكن والدلة لي شيخة ضعيفة قد نطت حياتها بحياتي ، أخاف عليها الضيم من بعدى »

وقال الثاني :

« ولي أخت عانس أكفلها ، فإن أمت ، فيا ليت شعري من يكون لها بعدى »

وقال الثالث :

« وإن لي له مدبقا مظلوما ما له سوى من معين ولا ناصر ، وما كان من حقه على أن أخذه بموتي »

وقال الرابع :

« ولى عدو مبین ما ينبغي لى أن أموت حتى آخذ منه بثأرى »

وقال الخامس :

« إن حياتى بأسباب العلم معقودة ، فهل كان لى أن أضحى بها من قبل أن أسير الأعماق من بحار الأقاليم السبعة ؟ »

وتلاه السادس قائلا :

« وهل كان لى أن أضحى بها ، من قبل أن أناجى سكان القمر ؟ »

وقال السابع :

« أما أنا فلا أم لى ولا أخت ، ولا صديق ولا عدو ، ولم أولع بالعلوم ولوع البعض من زملائى ، ولكنى أشد كلفا ، وأحد شغفا بروحى ، على خد قول القائل « يا روح ما بعدك روح ! » ومن أحب من هذه الحياة شيئا ، فليس أحب لى من جلدى هذا ، إنه لجميل فى مرآة عيى ، بض ناعم تحت كفى ، وإنى له - مهما فرط الناس فى جلودهم - لحافظ . »

فقال الفيلسوف :

« والخلاصة إذن أنه ليس فيكم من يريد أن يخاطر بحياته ابتغاء كأس الخلود »
فظل الفتيان السبعة فى حجل صامتين ، لا يستطيعون إزاء تلك التهمة إقرارا بها ولا إنكارا .

ثم أعملوا الفكرة يتلمسون من ذلك المأزق مخرجا .

وقال أحدهم :

« ما قولك فى سحب قرعة على الأقداح ، وتسليم الأمر للمقادير ؟ »

قال الأستاذ :

« لست أعارض فى ذلك »

فجاء السبعة الفتيان بسبع ريشات متفاوتة الأطوال ثم بدأوا يسحبونها كالعادة المتبعة ، فوقعت أقصرها فى يد ذلك الشاب الذى كان قد اعتذر بأن له أما يكلوها ويرعاها .

فاتقرب من المتضدة رابط الجأش ، ثم مد إلى منتصف المسافة ، ولكنه التفت فجأة إلى حامل الريشة التالية ، ذاك الذى اعتذر بأخته ، فقال له :

« قد تعلم أن صلة الابن بأمة أكد وأوثق ، ثم أظهر وأقدس ، من صلة الأخ بأخته ، أليس فى الحق أن تسبقنى أنت إلى احتمال أولى صدمات هذه المخاطرة ؟ »

فأجاب المخاطب قائلا :

« إن صلة ما بين الابن وأمه ، هى على شدة متانتها وقداستها ، وشيكة الزوال ، بطبيعة الحال ، فسرعان ما تقصم وفاة الأم عروتها ، على حين أن علاقة ما بين الأخ وأخته قد تدوم دهرا طويلا فكان حقا عليك - إذا - أن تكون أنت البادئ بالمخاطرة »

فصاح الأول قائلا :

« تالله ما كنت قط أتوقع مماع مثل هذه السفسطة من أحد تلاميذ الفيلسوف
« أبو نبيل ! أمثل قولك ذاك يقال فى أواخر الأمومة ؟ »

فقال الستة الآخرون :

« دعك من هذا العبث والمراء ، نفذ شروط القرعة ، وإلا فانسحب بسلام »
على أثر هذا الإغراء والإلحاح أدنى الفتى يده من المتضدة فقبض على أحد الأقداح ، ولكنه ما كاد يفعل ذلك حتى خيل إليه أنه يلمح فى السائل شيئا بشع المنظر كرهه اللون ، يميزه - فى خياله - عن صفاء سائر الأقداح ونقاوتها ، فسرعان ما أعاد القدح إلى مستقره ، ثم قبض على آخر ، وفى تلك اللحظة ، انقض على السبعة الفتيان من حيث لا يدرون - شواظ من لهب ، فصعقوا جميعا ، وخرجوا إلى أرض المكان صرعى ، لا حس بهم ولا حراك .

ولما ثاب إليهم شعورهم ، ألفوا أنفسهم خارج منزل الفيلسوف ، وأنهم لمعمورون مبهورون من هول تلك الصدمة ، يترنحون كالسكران وما هم بسكران ، ثم إنهم تعاقبوا على إلقاء السر بينهم مكتوماً ، وعلى ذلك انصرفوا إلى ديارهم بأسوأ حال من الذلة والصغار ، والخزى والعار .

ولما كان كتمان السر بين سبعة يوشك أن يكون من المحال ، بل كان :

كل سر جاوز الـ إثنتين شاع

فإنه لم يمض أسبوع حتى أصبح ذلك السر معروفا لدى معظم سكان المدينة ، وآخر من علم به السلطان .. ثم لم تك إلا هنيهة حتى أحرق جنود الحرس والشرطة بمنزل الأستاذ « أبو نبيل » للقبض عليه ومصادرة « الإكسير » . ولما أبى الأستاذ أن يأذن لهم ، اقتحموا عليه الدار وحينما دخلوا حجرته ألقوه على حال هي أشد إفصاحا وأوضح دلالة على فرط احتقاره لذلك الإكسير من كل لفظ ومنطق - ألقوه ميتا في مقعده ، وعلى المتضدة أمامه السبعة الأقداح ستة لا تزال ملأى ، والسابع فارغ ، وفي يده رقعة عليها الكلمة :

« سبعين عاما سلخت في طلب العلم والتماس الحقيقة ، وهأنذا أترك للعالم تراثي وثمرة مجهودي وما هي إلا ستة أصناف من السم وقد كان في مكتبي أن أعزها يسابع ، أشد منها فتكا ونكالا ، وأعنى به إكسير الحياة ، وسيلة الخلود في هذه الدنيا التي كلها شقوة وعذاب ، ومحنة ومصاب ، وآفات وأوصاب ، وعلقم وصاب ، ولكنني أشفقت من هذا الإكسير « سابع السموم وأخبثها وأنكأها » على ابن آدم فحسبه من الكرب والبلاء ما يكابد في حياته القصيرة ، وأي خير - هداكم الله - في جعل الألم سرمدا والبؤس والعناء مخلدا ، فلقد جنب ابن آدم ذلك الإكسير وكففته شره رحمة به وحنانا ، ثم أودعته جوف مخلوق آخر لن يكون عليه منه أدنى شر ولا آفة .

فاكتبوا يا رعاكم الله على قبري :

« هنا يرقد الرجل الذي أبى أن يخلد على الإنسان بؤس الحياة وشقاءها »

فنظر الجند بعضهم إلى بعض ، يحاولون استجلاء ما غمض من معاني هذه الكلمات .

وإنهم لكن ذلك إذ راعهم صرخة هائلة من الغرفة المجاورة ، وإذا بقرد جسيم قد طلع عليهم يتوثب ويتنزي ، وبه من شدة المرح والنزق والنشاط ما أثبت في عقائدهم أن الفيلسوف المتوفى ، مدفوعا بعامل المقت للحياة البشرية والإصغار لذخائرها وكنوزها والمهزء والسخرية بكل ما فيها قد أثر ذلك القرد بإكسير ، فسقاه كأسه إلى آخر صباية .

تجربة

دعا الشيخ المسن ، العالم الحكيم ، الدكتور هيديجار أربعة شيوخ كبار من أصلقاته - ذات مرة - إلى مكتبة ، - ثلاثة رجال شيب وامرأة شمطاء ، وكان الأربعة ممن أتاخ عليهم الدهر بكلكله ورماهم بخطوبه وأرزائه ، وكانت كبرى مصائبهم أنهم ما برحوا على قيد الحياة ، وأن المتون لم ترحمهم من نكد العيش وطول البلاء ، - فأما أحدهم وهو المستر « مدبور » فقد كان في عهد رخائه تاجرا مثرى ، ولكنه خسر ثروته في مضاربة خرقاء ، ثم أصبح لا يفضل الشحاذ المتسول بكثير ، - والثاني وهو الكولونيل « كيلو جرو » أضاع صفوة عمره في المعاصي والمفاسق وأباد في سبل اللذات والشهوات عافيته وثروته وأصبح مبتلى بما يسيبه الانهماك في اللهو والترف من صنوف الأمراض والعلل . وثالثهم المستر « جاسكوين » كان في زمانه سياسيا سىء السمعة بغيض الذكر مستكر السيرة ، ثم سقط ونبذ في زوايا الإهمال وأعضاه الله من سوء السمعة خمول الذكر وغموض الشأن - أما الرابعة وهى الأرملة « ويشرلى » فيروى أنها كانت في زمنها آية في الجمال ، ولما أفل نجمها ، وركدت ربحها ، بعد ذهاب حسننها وملاحاتها ، احتجبت عن الأبصار وعاشت في عزلة . هذا ، ولقد كان الثلاثة الرجال آنفى الذكر من أكبر عشاق تلك المرأة سالفا ، وكان ولعهم بها وهيامهم قد بلغ حالة أوشكوا معها أن يقتل بعضهم بعضا .

وقال رب البيت الدكتور « هيديجار » وأوما إلى ضيوفه الأربعة بالجلوس :
« إخوانى الأعزاء ، إنى دعوتكم الآن لتعينونى على إجراء تجربة صغيرة - إحدى هذه التجارب التى أحاول بها قتل الوقت والتسلية فى خلواتى بمكتبى هذا »

وكان مكتب الدكتور « هيديجار » من أعجب المشاهد وأغربها ، كان حجرة مظلمة عتيقة النمط ، مطرزة الأركان والحواشى بنسيج العناكب ، على أنحائها

وأرجائها نثار - لا من النضار - ولكن من الغبار ، مبطنة الجدران بقماطر الكتب والأسفار ، وعلى القمطر الأوسط تمثال بقراط ، ويزعم أن الدكتور « هيديجار » كان لا يزال كلما اعترضته مشكلة أو اعتاصت عليه تجربة في سبيل صناعته امتوحى تمثال بقراط المومي إليه واستفاته فيما يصعب عليه وأعضل . وفي أظلم أركان الغرفة صندوق من البلوط ضيق مستطيل ، منفرج الباب ، يلمح في باطنه هيكل عظمي ، وفيما بين قمطرين مرآة تربة الصفحة ، صدئة الإطار ، ومما يحكى عن هذه المرأة أن أرواح جميع من مات من مرضى الدكتور كانت تكمن في دائرتها وكانت تتراءى للدكتور وتحقق في وجهه كلما التفت نحوها ، وكان الجانب المقابل من الحجرة مزدانا بصورة كبيرة تمثل فتاة حسناء في حلل من سندس خضر واسترق قد طفى بهاؤها وروبقها كما طفت بهجة عيها ونضارته . وكان الدكتور « هيديجار » منذ نيف وخمسين عاما على وشك الزواج بهذه الغاية ، ولكنها أصيبت ليلة القران بشكاة فتناولت جرعة من بعض أدوية الدكتور - وكانت سما زعافا - فماتت على منصة الزفاف ليلة العرس ! وأعجب ما هنالك من العجائب ، كتاب كبير ضخيم مغلف بالأدم الأسود ذو مشابك عظيمة من الفضة ، ولم يكن على غلافه كتابة ولم يدر امرؤ ما عنوانه ، ولكنه كان يعرف أنه كتاب سحر ، وحدث ذات مرة أن خادمة الدكتور بينما كانت تنظف الحجرة فرفعت الكتاب المذكور لتزيل ما ركبه من خيوط العنكبوت ، تحرك الهيكل العظمي وتقعقع في صندوقه وبرزت صورة الحسنة من إطارها ، فتعلمت خطوة على أرض الحجرة ، وأطل من باطن المرأة طائفة من وجوه شاحبة ، وهز تمثال بقراط رأسه وعبس ، وقال للخادمة « أمسكى ! »

كذلك كان مكتب الدكتور « هيديجار » . في ذلك اليوم الصائف الذى جرت فيه هذه القصة كان فى منتصف الغرفة مائدة مستديرة عليها إبريق من البلور بديع الشكل والصنعة ، وكان ضوء الشمس ينبعث من سجوف الدمقس القانى ، فينصب على إبريق البلور ويخرقه ، ثم يستفيض ناعم الشعاع ، غرض الرونق ، لين السنا ، على وجوه أولئك الشيوخ الشاحبة الكاسفة ، وكان على المائدة أيضا أربعة أقداح .

وقال الدكتور هيديجار مكررا سالف قوله :

« هلا أعتمدوني على إجراء تجربة من أعجب التجارب ؟ »

فلما سمع الضيوف ذكر التجارب لم يذهب بهم الظن إلى أبعد من أن صاحبهم إنما يريد اختبار نسيج من بيوت العنكبوت تحت المجهر أو إعداد فأر في آلة تفريغ الهواء أو ما شاكل ذلك من تافهات التجارب ، مما كان لا يزال يضايق به ضيوفه ويعذب زواره ، ولكنه لم يفعل ذلك هذه المرة ، بل عمد إلى كتاب السحر الذى أثمرنا إليه آنفا ثم عاد به ، ففك مشابكه الفضية وتناول من بين صحائفه المرقومة بالحروف السوداء وردة (أو بعبارة أصح « ما كان في غابر الزمان وردة » وقد استحالت حمرة وخضرته صبغة سوداء مسودة » وكأنها في يده تكاد أن تتفتت فساقط ترابا .

وقال الدكتور وتنفس الصعداء :

« هذه الوردة ، هذه الزهرة الذاوية البالية ، كانت في أبهى نضارتها منذ خمسة وخمسين عاما ، يوم أهدتها إلى خطيبتى « سيلفيان » صاحبة الصورة المعلقة هنالك ، لأتجمل بها ليلة زفافنا ، وما برحت منذ ذلك العهد مكونة في طيات هذا السفر القديم ، خمسا وخمسين حجة ، فهل ترون في الإمكان أحياءها وردھا إلى البهاء والنضرة ؟ »

قالت العجوز « ويشرلى » بهزة إنكار من هامتها الشمطاء :

« ما هذا الهلر والهراء ؟ أقرب والله من ذاك رجعة الشباب ونضرة الشباب ، إلى عجوز مثل ا » .

فقال الدكتور :

« تأملوا ا »

وكشف الإبريق والقي الوردة الذابلة في الماء الذى به ، وهنا بدأ يبدو على الوردة تغيير عجيب ، إذ تحركت أوراقها المنسحقة الجافة واكست صبغة أرجوانية متزايدة الحمرة ، كأنها تتعش من رقدة الموت ، وأخضر عودها النحيف وفروعه المورقة المشبكة ، وهنالك بدت الوردة يانعة ناضرة كساعة أهدتها الفتاة « سيلفيا » إلى عاشقها منذ خمسة وخمسين حولا ، - غضة ناعمة ، لم تستم تفتحها ، إذ كان بعض أوراقها لا يزال مضموما إلى صدرها الخضل الرطب المحلى بلؤلؤتين

أو ثلاث من فرائد الطل تشرق وتتلأأ !
فلبغ المعجب والدهش من الضيوف أقصاه ، ولم يمهلهم الدكتور أن يعلنوا
عجبهم ، فقال :

« أما سمعتم قط بما يسمونه « ينبوع الشباب » - ذلك الذي ذهب الرحالة
الأسبانيولي العظيم « بونس دى ليون » فى استكشافه منذ ثلاثة قرون ؟ »
قالت العجوز :

« وهل عثر به الجواله المذكور ؟ أجاب الدكتور :

« كلا ! لأنه لم ينشده فى مكانه ، إن ينبوع الشباب هذا كائن فى جنوبى
شبه جزيرة « فلوريدا » على مقربة من بحيرة « ماكاكو » تستر منبعه عن الأبصار
بظلالها الوارفة المتكاثفة طائفة من عظام النوح العادى ، وهذه الأشجار العتيقة
قد بقيت - بفضل ما يتسرب إلى جذورها ، من ماء ذلك ينبوع - فى عنفوان
الشباب ونضرة الغضارة الآلاف المؤلفة من السنين ، ولى صاحب يعرف فرط
شغفى بكل ذى ندرة وغرابة فبعث إلى من ماء ذلك ينبوع بما تروته فى هذا
الإبريق »

فقال الكولونيل « كيلوجرو » وهو لا يكاد يصدق مقالة الدكتور وبحسبها
من قبيل شعوذة الحواة :

« حسبك ، حسبك ! وماذا عسى أن يكون من أثر ذلك الماء فى جسم
الأنسان ؟ »

قال الدكتور :

« سترى بنفسك وتحكم ، وسأهيككم من هذا السائل العجيب ، ما يرد عليكم
رونق الشباب وغضارته »

وفى خلال كلامه كان يملأ الأقداح الأربعة المصفوفة على المائدة من ماء
ينبوع الشباب ، وكان ذلك الماء مشبعاً بنوع فوار من الغاز ، إذ جعل أثناء انصبابه
يتصاعد من جوفه فى الأقداح فقاعات صغار تسمى إلى أعلاه ثم تنبسط على
صدره كسلاسل الذهب وقلائد العقيان ، ولما سرى منه إلى أنوفهم عقب المسك
الفتيت ، لم يستبعدوا أن يكون ذا خواص شافية ، وأنسوا - على فرط شكهم فى

سألم أن يصبروا قليلا ، وقال :

« لقد طالما جريتم الحياة أيها الإخوان ، و يقينى - بعد ما حلبتم الدهر أشطره ، وذقتم من عسله وصابه - أنكم إن عدتم إلى شرح الشباب واستقبلتم الحياة من أولى مراحلها بفضل هذا الماء العجيب - لن تضلوا سواء السبيل كما ضللتوه أول مرة ، ولن تقفوا فيما كنتم وقعتم فيه قبل خيرتكم وكثرة غرورك ، من السقطات والزلات ، وأن تكونوا بفضل ما قد أورثتكم الحنكة والتجربة من الحكمة والدهاء خير قلدوة للنشء وخير مثال صالح لهذا الجيل فى حسن السيرة ، وجمال المذهب ، وأصالة الرأى ، وكال التقوى »

فلم يجب الضيوف على وصية الدكتور بأكثر من ضحكة لينة خفيفة مؤداها أنه لن يكون منهم إلا ما سألم الدكتور من الصلاح والاستقامة بعدما ذاقوا من سوء عاقبة الطيش والنزق ، وعقوبة الضلال والغواية ، وعندئذ انحنى لهم الدكتور وقال :

« اشربوا إذن من ينبوع الشباب وإكسیر الحياة باسم الله وبركته ، وشد ما يسرنى أنى اخترت لتجربتى هذه خير أهل لها وأكفأ ، اشربوا على الطائر الميمون وسعد الطالع ! »

ورفع الجماعة الأكواب بأيدي مشنجة من الهرم رعشة ، واحسوها إلى آخر صباة ، وسرعان ما أشرق على وجوههم سنا يرقها اللامع ، ونورها الواضح ، وبدلت وجتاتهم الذابلة نضرة التعيم من شحوب الفناء ، وجمرة العافية من صفرة الموت ، ونظر بعضهم إلى بعض ، وخيل إليهم أن فى ذلك الشراب نفثات سحر مبين تمحو من جباههم ما قد طالما نقشت عليها يد الدهر من سطور الهرم واليلى ، ومدت الأرملة « ويشرلى » كفها إلى قناع رأسها فأصلحته وعدلته ، وقد بدأت تشعر ثانية أنها امرأة تستحب وتشتهى بعد إذ هى حرص هالك ورمة بالية .

وصاحوا جميعا متلهفين :

« زدنا من هذا ، زادك الله من فضله ! لقد دنونا من الشباب مرحلة ، ولكننا لم نصل بعد إلى شرخه وعنفوانه ، عجل إلينا بإكسیر الحياة ! زدنا ثم زدنا ، زادك الله بركة ! »

قال الدكتور وهو يتأمل أثر التجربة ومفعولها وسيرها فى هدوء فلسفى :
 « مهلا ، مهلا ، أفلا يسرّكم أن تعودوا إلى الشباب فى نصف ساعة ؟
 ثم ملأ الأقداح ثانيا ، وبينما الحب لا يزال يتلألأ على حافتها ، اختطفها
 الأربعة الضيوف كخطف البرق ، واحتسوها دفعة واحدة ..
 يا لله ! ما هذا الأثر السريع والانقلاب المدهش .. أحقيقة أم خيال ، أم مس
 من خيال ، أم أوهام ، أم أضغاث أحلام ! لقد صنع هذا الشراب بجوارحهم
 والحواس ، مالا تصنع الكيمياء بالرصاص والنحاس ، إذ صفت منهم العيون
 وبرقت الأحداق ، وشحذت الشهوات والأذواق ، واسود جانب من شبيهم
 وبلغوا سن الرجولة المكتملة ، واستوى منهم حول المائدة أربعة شخوص فى سن
 الأربعين .

وقال الكولونيل « كيلوجرو » صائحا ورنأ إلى الأرملة :
 « لله أنت يا سيدتى « ويشرلى ! « ما أزهى حسنك ، وأبهى جمالك ! »
 وأدمن النظر وأدام كرة الطرف إلى محيائها ، وإن ظلال الهرم والشيخوخة
 لتساقط عنه كما تنجاب ظلمات الليل عن عمود الصباح ! فهضت الأرملة
 وهرعت إلى المرأة وهى تخاف أن ينعكس لها على صفحتها وجه عجوز شمطاء ،
 ولكنها عادت قريرة العين مثلوجة الأحشاء ، أما الثلاثة الرجال فقد كانوا فى
 نشوة كأن ما احتسوه من ذلك السائل العجيب كان فيه مادة مسكرة ، أو كأن
 ما ألقى عن عواتقهم من أعباء السنين قد تركهم من شدة الترق والخفة فى مثل
 نشوة الراح ، فأما السياسى المستر جاسكوين فقد تناول طائفة من المسائل السياسية
 وأقبل يسبح بالخطب الرنانة ويهضب ، ويترسل فى مناهج الكلام ويسهب ،
 وطلق يخوض فى ذكر الوطنية والمفاخرة القومية ، والحقوق الشعبية ، وأنا يطرق
 موضوعات خطيرة ومسائل مخوفة ، وإذ ذاك يغض من صوته ويخافت من
 خطابه ، ويهمس بالقول همسا ، وبه من شدة الخذر والحيلة ما يظل معه ضميره
 نفسه جاهلا بأسرار قوله ، وآونة يتكلم بألفاظ موزونة ، بصوت غصبيض خاشع
 كأنه مائل فى حضرة السلطان . وأما الجندى ، الكولونيل « كيلوجرو » فقد
 كان أثناء ذلك يصدح بنشيد حربى ، وينقر على الكأس توقعا ، وعينه ترتعان

كان أثناء ذلك يصدق بنشيد حربي ، وينقر على الكأس توقيعا ، وعياه ترتعان
في محاسن المسز « ويشرلى » . وأما التاجر المستر « مدريون » فقد كان متحيرا
في حاسبة طويلة عريضة ، يضرب موكبا جرارا من الأرقام في مثله ، بمناسبة
مشروع خطير يرمى إلى توريد الثلج إلى جزر الهند الشرقية بطريقة ربط قطيع
من الحيتان إلى هضاب الثلج القطبية ليحررها - كما تجر الثيران ثقال المركبات -
من القطب الشمالى إلى المناطق الاستوائية !

وأما المسز « ويشرلى » فقد وقفت إلى المرأة تومىء إلى خيالها بالتحيات ،
وتومض له بالابتسامات ، وتقديه بالأهل وبالمال وبالروح على اعتبار أنه أحب ما
فى الوجود إليها ، ثم لصقت وجهها بالمرأة لتبصر هل زالت منه فعلا غضون
الهرم وتجاعيده ، وهل تمزق فعلا قناع المشيب عن رأسها ، وذابت ثلوج القثير ،
ثم استدارت فى خفة ورشاقة . وعادت إلى المائدة تمرح وترقص ، ثم صاحت :
« عزيزى الدكتور ، تفضل على بكأس أخرى ! »

فقال الدكتور فى رقة وحفاوة :

« كما تشائين يا سيدتى ، انظرى ! لقد ملأت لكم الككوس »

وفعلا كانت الككوس مترعة بإكسير الحياة كأنما الحب فيها حصباء در على
أرض من الذهب ، وفى تلك اللحظة كانت الشمس تنجح للغروب وقد دنف
ضوءها ، ومرض شعاعها ، فأظلم فضاء الحجرة ، ولكن إبريق الإكسير انبعث
منه إذ ذاك وميض لين غص لطيف كنور القمر ، استقر على وجوه الضيوف
الأربعة ، وعلى وجه الدكتور ، الشيخ الوقور ، وكان مستويا على كرميه الفخم
الرفيع ، عليه من سيماء الهيبة والوقار ما هو خليق أن يكلل هامة « الزمان » -
سلطان الأكران - ذلك العزيز الجبار - الذى دانت لسطوته البرايا ، إلا هؤلاء
الخمسة الأفراد الذين أتيح لهم فى تلك الساعة أن يخلعوا طاعته ، ويصدقوا
ربقته .

وما كاد الضيوف يشربون أقداحهم حتى اشتعلت فيهم جذوة الصبا ،
وتأججت جمرة الشباب ، وأصبحوا وإنهم لفى حلل الحدأة يرفلون ولم يبق فى
أذهانهم من ذكريات الهرم والمشيب وعله وأحواله ، ومحنه وأرزائه ، إلا شبح

والابتهاج ، وكأن ما قد كان لم يك كان ! وبهجة الشباب الناضرة - تلك التى بدونها لا تبصر العين من هذا الوجود سوى معرض صور شاحبة ، ألوانها ذاهبة - تلك البهجة - بهجة الشباب ردت إليهم وأفاضت لهم على مشاهد الكون روعتها الباهرة ، وفنتتها الساحرة ! وخيل إليهم كأنهم أناس ولدوا من جديد فى دنيا أنشئت من جديد ! فصاحوا جميعا :

« نحن شبان ! نحن شبان ! »

وكذلك كانوا شبانا يغلى فى عروقهم ماء الشباب وتكاد تذهب بعقولهم حمياه ، لقد أوشكوا أن يحزن جنونهم ، وكان أول ما دفعهم إليه نرق الشباب وغروره ، أن يسخروا من الشيخوخة ويهزأوا من الهرم الذى كانوا - قبل لحظة - من فرائسه وضحاياه ، فأقبلوا يضحكون من ملابسهم العتيقة الطراز الفظيعة الشكل ، التى لا تليق بمن كان مثلهم فى شرخ الشبيبة وريعان الصبا ، وما كان أعلى ضحكات « العجوز - الصبية » من جبتها الفضفاضة وعمتها الكبيرة ، ثم أقبلوا يقلدون عاهات الشيخوخة وآفاتها ، فانبرى أحدهم يحجل فى أنحاء الغرفة ويعرج يحكى مشية المصابين بداء النقرس ، وتناول آخر منظارا فوضعه على قصبة أنفه وأقبل ينظر فى صفحات كتاب السحر ، كأنه شيخ هرم ضعيف البصر ، وجلس ثالث على كرسي وجعل يقلد الدكتور « هيديجار » فى بأوه وجلاله ، ثم أقبلوا يتصافحون ويتواثبون ، وصمدت الأرملة - إن كان يصح أن تسمى أرملة مثل تلكم الحسنة الفاتنة - إلى الدكتور فقالت له على سبيل المداعبة الخبيثة :

« أيها الدكتور ، يا حبيى الهرم المتهدم ، قم فارقص معى »

وهنا أرسل الأربعة الرجال ضحكة عالية صاحبة كأنهم يتخيلون غرابة منظر الشيخ المسن وهو يرقص .

وأجابها الدكتور قائلا :

« معذرة يا سيدتى ، إنى شيخ كبير وليس يحسن الرقص أمثالى . ولك عنى مندوحة فى أحد هؤلاء الشبان ، ممن يعد الرقص معك غنما كبيرا ونعمة جلى »

وهنا صاح الكولونيل « كيلوجرو » :

« ارقصى معى يا صديقتى كلارة »

فصرخ المستر « جاسكويين » قائلا :

« كلا ! بل معي ترقصين يا كلارة »

فضج المستر « مدبورن » قائلا :

« لا معك ولا معه ، بل معي أنا ، لقد وعدتني أن تهبنى يدها للزواج منذ

خمسین عاما »

وكذلك أهدقوا بالمرأة إحدائق السوار بالمعصم ، يتجاذبونها كما تتجاذب السباع الفريسة ، فواحد ينهال عليها شما ولثما ، وثان يوسعها عنقا وضما ، وثالث يعبث بشعرها الوحف نشرا ولما ، والمليحة الحسناء وسطهم تحمر خجلا وتصفّر وجلا وتلذود عن نفسها وتدفع وتكف عن ثمار حسننها الأكف وتقدّع ، نافرة آنسة باسمّة عابسة ، تنفخ وجوههم بأنفاسها العاطرة وتصمى قلوبهم بألحاظها الفاترة ، تحاول الخلاص وما من خلاص ، وترىغ الإفلات ولات حين مناص .

لقد كانت - وربك - أبدع صورة تمثل اقتتال الرجال على المرأة ، وتقانى الرجولة والفتوة فى طلب الجمال ، وتناحر الشباب والقوة ، على مذبج الفتنة والدلال ، ولكن العجب العجيب أن المرأة كانت - لأمر ما - تمثل هنا المنظر الجميل فى صورة بشعة شعاء - صورة ثلاثة شيوخ يتكافحون على عجز شمطاء .

هذا تمثيل المرأة ، وكذبت المرأة ! لقد كانوا فتيانا حسانا ، يتهليون عشقا ، ويتضرمون شبقا ، وقد سمرت الفتاة فيهم بدلاها جنون الحب ، ومن الحب جنون مستعر ، وأوقدت فيما بينهم نار الغيرة ، فتبارزوا ، وتناجروا .

وتواثبوا يتقاذفون بأعين فى لحظها جمر الغضا المتسعر

ثم نشبت بينهم حرب ضروس ، واشتد الكفاح والصراع ، وانقلب المائدة وسط هذه المعركة الطاحنة ، فاعظم إبريق الإكسير وإهريق ماء الشباب النقيس يجرى على أرض المكان جدولا مشرقا ررقا متألعا قبلل تياره البراق جناح فراشة هرمة بالية ، كانت قد نفذت إلى داخل الغرفة ثم وقعت على أرضها لتموت ، فما هو إلا أن مسها الإكسير حتى انتعشت وعاشت وأقبلت تتوثب وتتنزى حتى وقعت على هامة الدكتور الشهباء .

وصاح الدكتور :

« على رسلكم أيها الإخوان ! كفوا وأمسكوا ، إنى أحتج على هذه الخطة الخرقاء ، والسيرة النكراء ، أنسيتم ما بايعتمونى عليه من تقى وصلاح ؟ »
فوقفوا ساكنين ، ينتفضون انتفاضاً ، وكأن « الزمان » الأشيب القديم قد بدأ يهيب بهم ليسترجعهم من قمة الشباب الزاهية ، إلى وهدة المشيب الداجية ، وظلوا واقفين ينظرون إلى الدكتور « هيديجار » يحمل على كفه الورد العتيقة ، وكان قد التقطها من بين أنقاض الإبريق وجذاده ، وأوماً الدكتور إلى ضيوفه الأربعة فاستوا فى مجالسهم .

وصاح الدكتور واستعرض الورد فى ضياء الشفق :

« أسفى عليك أيتها الوردة ! لقد عاودك النحس ، واستأنف البلى إليك ديبه والقضاء مسراه ! »

وقد كان ذلك إذ جعلت الوردة تتقبض وتتقلص ، حتى صارت من الذبول والجفاف كما كانت حين ألقى بها الدكتور فى الإبريق ، وقال الدكتور وهو ينظر إلى الوردة الذابلة :

« تالله ما أزرى بها عند ذبولها ، ولاغض منها جفافها ، وما أحبها إلى جديدة وبالية ، وما أعزها على ناضرة وذلوية ! » وفيما هو يتكلم سقطت الفراشة من فوق رأسه فانية ، وانتفض الضيوف الأربعة ثانياً ، ودبت فى أبدانهم وأرواحهم شعيرية ونظر بعضهم إلى بعض وخيل إليهم أن كل لحظة تمر تحتل معهما من محاسنهم ملحة وتسلب من ملاحظتهم طرفة ، وتترك مكان ذلك عيباً وشيناً ، أحقا كان ذاك ؟

وصاحوا يندبون :

« أهكذا زال الشباب وعاد المشيب ؟ »

وحقا كان ذلك ! لقد كان لماء الشباب أثر ، ولكنه أثر زائل ، فهو كالخمرة أشد ما تكون نشوتها أقربها من الزوال . أجل لقد عاودهم الهرم والشيخوخة وزفرت الأرملة زفرة حارة وغطت بيديها المعروقتين وجهها المغضن ، وتمنت لو يسدل عليه الكفن للتو والساعة .

وقال الدكتور « هيديجار » :

« إى ورى ، أيها الخلان ، لقد علودتكم الشيخوخة على حين قد أهريق ماء الشباب من إبريقه ، فما ثمت إلى رجعة الشباب من حيلة ، بيد أنى على ذاك غير آسف ، ويمينا لست بكاذب لو أن ينبوع الشباب يتدفق بفناء دارى لما حدثتني النفس أن أرشف منه رشفة ، فحسبى والله ما شاهدت من أثر عودة الشباب فيكم ، لقد أقيتم على درسا قيما وعظة بالغة !

تأديب زوجة

كانت « كاثرين » كبرى بنات المدعو « بابتستا » من أعيان « بادوا » (بإيطاليا) سيدة الخلق نارية المزاج صخابة بذية اللسان وقد اشتهرت بذلك عند أهل المدينة طرا حتى أطلقوا عليها كاثرين الشريرة « فتأذرها فتيان البلدة وتقادوا منها حتى أصبح من المحال أن يخطبها للزواج من بينهم أحد ، وبذلك كسدت سوقها وسوق أختها الصغرى المهذبة السمحاء « يانكا » إذ امتنع أبوها أن يبدأ إلا بتزويج الكبرى .

واتفق أن ثريا يدعى « بتروشيو » قدم مدينة « بادوا » لينتقى من بين أوانسها زوجة فيلغه فيما بلغه نبأ « كاثرين » الشريرة فأصر على طلبها للزواج لفرط جمالها وثروة أبيها ، فأما سوء خلقها فلم يعأ به وضرب به عرض الحائط إذ قال في نفسه « لأنترعن عقرب الشر من طباعها ولأردنها سمحة القياد مذعانا » ولقد صدق في قوله حيث كان أوتي من الحكمة والدهاء والحزم والعزم وسعة الحيلة والتدبير ما هو كفيل بما نوى .

وكذلك مضى « بتروشيو » إلى « بابتستا » وخطب إليه ابنته « كاثرين » فأجاب طلبه فرحا مسرورا ، ثم أذن له أن يلقي الفتاة ليزدلف إليها ويقترب . قال « بتروشيو » ما أشد شوقى للقيها ، لقد رغبتى فيها ما بلغنى من حسن خلقها وسهولة عريكتها وسلاسة مقادتها وحلاوة لسانها . فدهش « بابتستا » من كلام ضيفه وعز عليه أن يغشه بكتمان الحقيقة عنه فقال له على الرغم منه « سيدى لا أخدعك ، إن ابنتى لعل نقيض ما بلغك ، إنها أسوأ النساء خلقا وأفحشهن لسانا و .. » وهنا دخل عليهما معلم الموسيقى هاربا من « كاثرين » يتألم ويتوجع قال « سيدى أغشى أدركنى ، لقد ثارت على الآنسة « كاثرين » لمراجعتى إياها فى نعمة أخطأت توقعها فقدفتى بالعود فحطمت رأسى !

فالتف الوالد إلى ضيفه قائلا « ما رأيك ؟ وكيف ترى أخلاقها ؟ »

فأجاب بتروشيو :

« هذا وأمثاله يزيدنى بها شغفا وإليها اشتياقا »

فأجاب بتروشيو :

« هذا وأمثاله يريدنى بها شغفا وإليها اشتياقا »

قال بابتيستا لقد أعذر من أنذر . وأرأنى بعد قد أخليت نفسى من كل تبعه ،
فعليك وحدك مسئولة فعلتك ! »

وعلى هذا مضى السيد إلى ابنته فأبلغها الأمر وسألها أن تذهب إلى ذلك
الخاطب لتسمع خطبته .

ولما خلا « بتروشيو » إلى نفسه جعل يفكر كيف يستقبل الفتاة وبأى لهجة
يجاورها وبأى أسلوب يناضلها فقال فى نفسه « الأمر والله أهون مما يتخيل ،
سأبثها شوقى ووجدى لأول وهلة ، فإذا بددتهنى بالشتم والسباب قلت لها ما
أعذب لفظك وما أرق عبارتك ، لكلامك فى أذنى أشجى نعمة من الكروان
وأحلى رنة من العيدان . » وإذا عيست وتجهمت قلت « ما هذا البشر والطلاقة ،
إن رونق عيالك ليخجل الأقمار . ويطفىئ جمره النهار . وإذا سكنت قلت « ما
هذه الفصاحة والبيان ، والمتطق المزرى بقلائد اللؤلؤ والجمان . »

وبينما هو فى ذلك دخلت عليه « كاثرين » تيمس تيهما وتسحب الذيل
خيلاء ، فابتدرها بهذا السلام « صباح الخير يا « كات » (تصغير) « كاثرين »)
فأنكرت الغانية منه هذه الجرأة والتهجم على مقامها الرفيع فقالت « اسمى كاثرين ،
فليسمنى بذلك من يخاطبني وإلا فليسكت » قال بتروشيو كذبت يا « كات »
لأنهم يا « كات » يسمونك « كات » وأحيانا « كات » الرشيقة و « كات »
الجميلة و « كات » اللعوب و « كات » الشريرة و « كات » الوقحة ، ولكن
اسمعى منى يا « كات » . إنك وأيم الحق لأملح جميع من فى العالم من « الكاتات »
(جمع « كات ») ، ولتعلمن بعد يا « كات » إننى على أثر ما وصف لى من فرط
تواضعك وحسن طاعتك رغبت فيك زوجة فجئت أخطبك .

فأوسعه الفتاة شتما وسبا ، وكلما انهالت عليه بلفحات القدح والهجماء ،
انهال عليها بنفحات المدح والثناء . حتى إذا أحس بقدم أبيها قال لها على مسمع
منه ليصل إلى غرضه بأسرع ما فى الإمكان « حبيبتى كاثرين ! دعينا من هذا
الهزل والمزاح ، واعلمى أن أباك قد ارتضانى لك بعلا ، وقد حدد لى مهرك

« الدوتة » ولسوف تزوجين منى طوعا أو كرها .

ثم التفت إلى أبيها - وكان قد دخل الحجرة مع انتهاء مقاله - فقال له إن ابنته قد أحسنت استقباله وبالغت في إكرامه وإعظامه ، ووعدته أن تتزوج منه يوم الأحد القادم . ولكن « كاثرين » كذبت قائلة إنها لتود أن تراه يوم الأحد مذبحا أو مشنوقا ، ثم نقت من أبيها إغراءه إياها بالتزوج من مثل ذلك الأحق المعنوه . فرغب « بتروشيو » إلى والد الفتاة أن لا يعبأ بمقالها إذ كانا قد اتفقا فيما بينهما على أن تتظاهر أمامه بعدم الرغبة في الزواج ، ولكنها قد أظهرت في غيبتها أقصى متتهى التودد إليه والأنس به ، ثم التفت إلى الفتاة فقال « مدى إلى يدك يا كات » سأرحل إلى فينسيا لأشترى لك حلة بهيجة لليلة الزفاف ، فأعد العدة للعرس يا أبتاه ! وادع الضيوف ، ثم تركها وهو يقول « سآتيك يا « كات » بكل أصناف الحلل الفاخرة . والحلى الباهرة . أساور ودمالج وأقراط وخلاخيل وقلائد لتكوني أملح الغانيات ليلة العرس » وانصرف .

اجتمع الضيوف وتكاملوا في الساعة المحدودة من يوم الأحد ، ولكن بتروشيو أبطأ وطال إبطاؤه حتى سئم القوم وجزعت « كاثرين » وكاد يقتلها الغيظ إذ حسبت أن بتروشيو إنما كان يهزأ بها ويسخر من أقدم عواطفها . وبعد أن عيل صبرها قدم بتروشيو ، ولم يحضر أى شيء مما كان وعدها من الحللى والحلل .

وكان قد ارتدى ثيابا عجبية مضحكة أشبه شيء بما يسمونه « الكرنفال » وأليس اتباعه وخدامه مثل ذلك (وكان أبوها قد فطن إلى أنه قد تعمد ذلك وسيلة لكسر شوكة ابنته والغض من غلواء كبريائها) فسكت مستسلما ولكن الضيوف الذين لم يعلموا من سر ذلك ما علم الوالد بهتوا ودهشوا وحاتر عقولهم ، أما الأنسة كاثرين فكاد الغيظ يمزق أحشاءها وامتنعت من الذهاب على هذه الحال إلى الكنيسة ولكن والدها أرغمها إرغاما .

انطلق الجميع إلى الكنيسة واستمر « بتروشيو » يتظاهر بالسخف والمجون ، وإن شئت فقل الحمق والجنون . فمن ذلك أنه لما سأله القسيس هل يقبل « كاثرين » زوجة له صاح « إى والله ! إى والله ! أقسم بالله ! » أقسم بالله ! »

بصوت كالرعد القاصف زلزل جدران المكان زلزالا وكاد يحطم زجاج النوافذ ، حتى انتفض القوم فى مقاعدهم وريعوا وارتعدت فرائص الفتاة فرعا ، وذهل القسيس وسقط دفتر الزواج من يده ، ولما انحنى ليلتقطه لكزه « بتروشيو » بجمع كفه لكزة أسقطته والدفتر إلى الأرض ثانية .

ولكن القسيس مضى فى إبرام العقد على الرغم من ذلك كله ، واستمر بتروشيو فى أساليب سحقه ومجونه يسب ويلعن ويضرب الأرض بقدميه حتى كاد الرعب يذهب بعقل الفتاة وجعلت تنتفض كالعصفور بلله القطر . وقبل أن يبرحوا الكنيسة طلب بتروشيو قدحا من الخمر فشرب نخب الحضور بصوت مزعج وبقيت بالكأس صباغة فقذف بها فى لحية شماس من الشماسية ، ولما سئل عن ذلك ، قال إنه وجد لحية الرجل خفيفة النبات قليلة الخصب تحتاج إلى التسييح فسيبها بالخمرة وإنها لنخير سباح .

فكان أجن زواج رآه العالم منذ زوجت حواء من آدم !

وكان « بابتيستا » والد العروس قد صنع وليمة فاخرة . ولكنهم ما وصلوا إلى المنزل حتى قبض بتروشيو على يد زوجته كاثرين وأعلن نيته على الرحيل لتوه ولحظته دون أن يتزود لقمة واحدة من ذلك الخوان الحافل ، ولم يش عزمته ما وجهه إليه حموه من طلب ورجاء ولا ماصوبته نحوه زوجته من لوم وهجاء . فأعلن حقه فى أن يتصرف فى زوجته كما شاء ، ثم أخذها أخذ عزيز مقتدر ورحل بها على حصان مسن مهزول فى طرق وحلة وعرة ، وكلما كبا بها الجواد صاح به يزجره ويكيل له السباب كيلا جزاء له على ما صنع بزوجه المحبوبة حتى لكأنه أرأف الناس بها وأشفقهم عليها .

وأخيرا وصلا إلى المنزل وهنالك رحب بزوجه ، ولكنه أصر على أن لا يذيقها طعاما ولا ناما تلك الليلة .

فلما نصب الخوان وصفت الألوان . وتقدمت كاثرين لتناول العشاء ، وكان الجوع قد بلغ منها مبلغا ، جعل بتروشيو يأخذ الصحاف ويقذف بها إلى الأرض فتحطم ، ويعيب الأطعمة ويذمها ويسب الطاهى لسوء صنعه والخدام لقبح صنيعهم ويعجب من قبحهم وقلة حياثهم إذ يقدمون أمثال تلك الأطعمة السيئة

الكريهة ، إلى أجمل الآنسات وأملح الغانيات .

ولما ذهبت كاثرين إلى مضجعها لتنام قسطها من الراحة بعد طول الكد والنصب ، فعل بالفراش المعد لها كما فعل بألوان الطعام فتناول الوسائد والملاءة واللحاف فرمى بها من النافذة بحجة أنها رثة قلرة لا تليق بمقام السيدة الثرية النبيلة سلالة الحسب التليد ، والشرف العتيد . فاضطرت إلى قضاء الليل الطويل على مقعد ، وكلما مال برأسها النعاس هبت مذعورة على إثر صيحة من زوجها موجهة للخدم تعنيفا لهم على تقصيرهم في واجب العناية بزوجته المكرمة .

وفى اليوم التالى سلك بها عين ذلك المسلك حتى نهكها الجوع وأعيائها النصب وأصبحت تلك الآنسة المعمة المرفهة ذات العزة والجبروت تنزل من علياء كبرياتها إلى التماس كسرة من الخبز أو رشفة من المرق من أحقر الخدام ، ولكنهم ضنوا عليها حتى بذلك طبقا لأوامر سيدهم ، وهنا صاحبت كاثرين « هل تزوجنى ليميتنى جوعا ؟ إن الشحاذين الذين يطرُقون باب أبى يعطون من الزاد ما يتخلون به على ، وأنا التى نشأت فى النعمة وترعرعت فى الرفاهية ولم أعود قط مذلة السؤل ولا مضاضة الرجاء تبلغ بى الحال أن أشحذ اللقمة والجرعة فيضن بها على وقد تصدع رأسى من السهر دوارا . والتهبت أحشائى من الجوع أوارا . وأسوأ ما فى الأمر أن كل ذلك يفعل بى بحجة باطلة من الشفقة الكاذبة والرافة الزائفة »

ولما كان « بتروشيو » لا يريد أن يهلكها جوعا دخل عليها فى تلك اللحظة حاملا طعاما فوضعه بين يديها وقال « كيف حال حبيبتي وقررة عيني » كات ؟ هاك يا منية النفس وشقيقة الروح طعاما صنعت له لك بيدى لترى فرط عنايتى بك وحرصى على صحتك ، مالى أراك ساكنة لا تفوهين بلفظ واحد ؟ أكل هذه العناية لا تستوجب منك كلمة شكر ؟ لشد ما بخستنى حقى وكفرت بنعمتى ، وليس من حق كافر النعمة أن تدوم له ، فلأزها عنك » ثم أمر أحد الخدم أن يرفع الزاد من بين يديها ، ولكن الجوع الذى كسر من حدة كبرياتها دفعها إلى الإغضاء على هذه الإهانة العظمى واحتمال تلك المذلة الكبرى فقالت « إني أتوسل إليك أن تترك لى هذا الزاد ، إني أوشك أن أموت جوعا » على أن هذا لم يكن

كل ما أراد بتروشيو أن يستخرجه منها فأجابها قائلاً « عهدي بالجميل يستوجب الشكر مهما قل مقداره ، فلنشكرن جميل أو لأسحبه » فقالت كاثرين مكرهة « أشكرك يا سيدى » . عند ذلك تركها تنال من ذلك الزاد النزر الطفيف قائلاً « على مهلك يا حبيبتي ، رويدا رويدا ، فإنه أصبح لبدنك وأبقى لمحتك ، ولتعلمن بعد يا قرة العين أنا عما قريب ذاهبون إلى دار أبيك فلاهون ثمت ولاعبون ورافلون فى حلل الدياج ، وحلى الذهب الوهاج ، ولقد أوصيت أحد الخياطين أن يعد لك من صنوف الملابس ما يليق بك » وليربها أنه جاد فى قوله استدعى خياطاً يحمل صرة من الثياب ، ثم تناول صحن الطعام من أمامها قبل أن تملأ نصف بطنها فأعطاهما للخادم قائلاً لها « أوقد فرغت من غذائك ؟ » وهنا قدم الخياط إلى بتروشيو قلنسوة زرقاء قائلاً « هذه هى التى أوصيت بصنعها » فصاح به بتروشيو صيحة منكرة وأوسع سباً وشتماً وأمره أن يذهب بها من أمامه قائلاً : « ويل لك ! أى خير فى مثل هذه القلنسوة . أوقد كنت أوصيتك أن تصنع قلنسوة لمرة بيتنا ؟ ما أحسب إلا أنك فصلتها على إبريق الشاى ، خذها لآبورك لك فيها : هل كنت سأنتك أن تجيئنى بقشرة بندقة ؟ » فقالت كاثرين « أعطيتها فإنه لا بأس بها ، ولقد رأيت السيدات المهدبات يلبسها » قال بتروشيو « سأعطيكها يوم تصيرين مهذبة ، أما قبل ذلك فلا » وكان الطعام الذى أكلته كاثرين آنفاً قد نعيشها وجدد من نشاطها وحدثها فقالت « أحسب أنى باعتبارى حرة طليقة لى الحق فى إبداء رأى ، ولأبدته . لقد كان سادتك ومن هم أجل منك قدرا وأرفع مقاماً يستمعون إلى مقالى ، فإن كنت لا تطيق ذلك فسد أذنك » فراغ بتروشيو من جوابها هذا كأنه لم يسمعه ثم قال « تقولين إن هذه القلنسوة حقيرة لا ترضيك ؟ خيراً تقولين ، ومن أجل ذلك أحبك » قالت كاثرين « سواء عندي أحببتى أم لم تحبني ، إنه لا بد من أخذ هذه القلنسوة ، وغيرها لا آخذ » فراغ بتروشيو من ذلك الحديث أيضاً ثم قال للخياط « أرني الرداء الذى أوصيتك بإعداده » فلما عرضه عليه عابه كما عاب القلنسوة وزجره وطرده على الرغم مما أبدته كاثرين من شدة الرغبة فيه .

ثم التفت إليها قائلاً لا جرم يا حبيبتي « كات » لنذهبن إلى دار أبيك فى ملابسنا هذه الحقيرة » . ثم أمر بإعداد الخيل للرحيل وقال « سنرحل اللحظة ،

ولدينا متسع من الوقت ، وأكبر ظنى أنا سنصل هنالك قبل ميعاد الغداء فالساعة الآن الساعة صباحا . فدهشت كاثرين إذ كانت الساعة وقتئذ اثنتين بعد الظهر ، فنجاسرت إذ ترد عليه قائلة بصوت خافت ولهجة متواضعة لما كان قد بهرها وغمرها وأطبق على حواسها من جهارة وشدة ضجيجيه وثوراته « اسمح لى أن أقول إن الساعة الآن اثنتان بعد الظهر ، فليس فى الإمكان أن نصل هنالك بحال إلا بعد ميعاد العشاء » . ولما كان بتروشيو قد اعتزم أن يخضعها إخضاعا لا تسطيع معه إلا النزول عند حكمه فى كل شىء كائن ما كان بلا أدنى معارضة ولا مراجعة ، أجابها الساعة ما أريد أن تكون « حتى لكأنه المسيطر على دورة الفلك السيار والمهيمن على اختلاف الليل والنهار .

ثم التفت إليها قائلة « لا تزالين لى معارضة فى كل ما أقول وأفعل ، لست ذاهبا اليوم إلى دار أبيك ، ومتى هممت بالذهاب فستكون الساعة وقتئذ ما أفوه به »

مضى ذلك اليوم بلا سفر ، ولما شاء بتروشيو فى اليوم التالى أن يعلن رغبته فى السفر تعمد الخطأ فى أمر الساعة كما فعل من قبل فلم يجد من زوجته إلا تمام الموافقة والخضوع والطاعة العمياء ، فعلم أنه قد كبح من جماحها ونهنه من سورة طغيانها .

عند ذلك عزم على الذهاب بها إلى دار أبيها .

وفى أثناء مسيرهما حدث حادث عجيب انتهى بتمام خضوعها وإذعانها إلى الطاعة العمياء وذلك أنه نظر إلى الشمس وقال لزوجته « تأمل القمر فى كبد السماء كيف بهاؤه ولألأوه ! » قالت « تعنى الشمس ؟ » قال « كلا بل القمر ، وتالله لن أتقدم خطوة واحدة حتى تقرى أنه القمر » ثم ثبت مكانه وأوهها أنه يهم بالعودة إلى منزله ، ولكن كاثرين الطيعة المسماح (لقد تلاشت كاثرين العصبية الجموح) قالت « بل سر بنا وليكن القمر أو المريخ أو مشعل حطب أو - إن تشأ - فقنديل زيت أو شمعة من قش » فاسترسل بتروشيو فى عناده واستبداه ليزداد تثبنا من خضوع زوجته وإذعانها ، قال « إبنى أصرح أنه القمر » قالت « وأنا أعلم يقينا أنه القمر » وقال بتروشيو « كذبت ، إنها الشمس » قالت

كاثرين « هي الشمس إن شئت ، فإن لم تشأ فإني هي بالشمس ، فما تشاء أن تكونه تكنه وما لم تشأ أن تكونه لم تكنه »

وبذلك اطمأن قلبه واستراح ضميره ، ولكي يزداد استراحة وطمأنينة استوقف شيخا مسنا أشيب كان سائرا في سبيله فخطبه كما لو كان فتاة صغيرة قال « عمي مساء يا حسناء » ثم التفت إلى كاثرين فسألها هل رأت قط أملح من هذه الفتاة وأجمل ، وهل أبصرت أرشق منها قدا ، وأنضر خذا ، وألطف نهدا ، وأحسن غيدا ، وأسحر طرفا ، وأمتع ظرفا وألين عطفًا ؟ ثم واجه الشيخ ثانيا قال « أيتها المليحة الفاتنة أسعد الله دهرك وأطال عمرك ، وضاعف إليك منته . وأتم عليك نعمته . » ثم قال لزوجته : « يا كاثي » الحسناء ، بالله عليك إلا ما عانقت هذه الفتاة إجلالا لإبداع صنع الله في محاسنها الباهرة » فأذعنت كاثرين لأمر زوجها وخاطبت الشيخ الهرم بالكلمات الآتية « أيتها الخريدة العذراء ما أفن حسنك وما أبهر جمالك ، لقد استعرت من الشمس بهجتها ومن الزهر نضرتها ومن الورقاء نغمتها ، ومن الصبا اللعوب أرجها وخطرتها ، أيا تذهين ، ومن أين تقدمين ، طوبى لمن تعشرين وتلابسين » فقال بتروشيو « ما خطبك يا كاثرين وما دهاك وماذا أصاب عقلك ؟ هذا شيخ هم فإن قد نقض الدهر مرته ، ونحت أثلته ، وأذوى أيكته ، وصوح نضرتة ، وأذبل زهرته ، وحدد كدنته ، وغضن صحيفته » فالتفت كاثرين إلى الشيخ وقالت : « معذرة أيها الشيخ ، لقد بهرت الشمس بصرى فما أرى شيئا على حقه ، فتجاوز عن زلتى . »

ثم جرى بين بتروشيو وذلك الشيخ واسمه (فنشيو) حديث تبين منه أنه والد فتى يدعى « لوسنشيو » كان قد خطب أخت كاثرين الصغرى « ييانكا » وأنه ذاهب إلى دار بابتيستا ليشهد حفلة الزفاف . وكذلك ساروا جميعا فرحين مسرورين حتى بلغوا دار بابتيستا حيث كان يحتفل بشعائر زواج « لوسنشيو » و « ييانكا » وكان أبوها قد سمح بزواجها بعد ما تخلص من « كاثرين »

ولما دخلوا رحب بهم « بابتيستا » وكان بين الحضور فتى يدعى « هورتنسيو » وزوجته وكانا حديثي عهد بالزواج .

وجعل « لوسنشيو » و « هورتنسيو » - الزوجان الجديدان - يتغامزان على

« بتروشيو » إيماء إلى سوء حفظه الذى ابتلاه بالشريدة كاثرين ، ويتفاهان بالنواذر تهكما من كاثرين وسطوتها وجبروتها وكلاهما يحمد الله الذى رزقه زوجة طيبة ذلولا ، فأسرهما بتروشيو فى نفسه وصبر حتى انصرفت السيدات الثلاث إلى حجراتهن. وأقبل على صاحبيه فقال « أتضحك من زوجتى ، وإنها لأرق من زوجتيكما حاشية وأغض مكسرا وأسهل جنابا ؟ » عند ذلك ضحك « بابتيستا » وقال :

« كلا وربك ، لقد ذهبت بأسوأهن خلقا وأصعبهن شكيمة » . قال « ليظهر لكم صدق مقالتي دعونا نرسل فى طلب السيدات الثلاث فأينا كانت زوجته أسرع إجابة بحضورها قبل الآخرين تقاضى من صاحبيه غرامة ، فرضى الزوجان بذلك وتراهنوا على عشرين دينارا ، وبدأ « لوسنشيو » فأرسل إلى « بيانكا » خادمه يسألها أن تحضر ، وسرعان ما عاد الخادم فأعبر « لوسنشيو » إن سيده تقول إنها مشغولة لاتستطيع الحضور ، فقال بتروشيو « كيف حالك يا صاحبي ، أهكذا يكون جواب الزوجة لزوجها ؟ » . فضحك الجماعة وقالوا له « ليت زوجتك تكتفى بمثل هذا الجواب فلا تنبذك بما هو شر وأسوأ ، ثم أرسل « هورتنشيو » فى طلب زوجته إذ قال لخادمه « اذهب إلى سيدتك فارجها أن تأتيني » . قال بتروشيو « أرجها ! وعلام يرجوها ؟ وأما وقد وصل الأمر إلى الرجاء فما أراها إلا مخيبة رجاءك » فقال هورتنشيو : أكبر ظني يابتروشيو إن زوجتك لن يفلح معها رجاء ألبتة « ولكن هورتنشيو مالميث أن أطرق خجلا إذ عاد خادمه فقال إن سيده تقول إنكم تمزحون وتلهون فإن كنت تريد لقاءها حقا فاذهب أنت إليها » ، قال بتروشيو « هذا أمر وأدهى » ثم أرسل خادمه قائلا له « امض إلى سيدتك قل لها إنى أمرها أن تحضر حالا » ، فلم تك إلا لحظة حتى صاح « بابتيستا » قائلا « وأيم الله هذه كاثرين نفسها قادمة لكأنى والله فى حلم ! » ودخلت كاثرين فقالت لزوجها فى خشوع وتواضع « سيدى ! إنى رهن إشارتك وطوع بنانك » فقال لها بتروشيو « أين أختك وزوجة « هورتنشيو ؟ » فأجابت كاثرين « فى غرفة السم » قال بتروشيو « اذهبي فأحضريهما فى الحال » فصعدت بالأمر بلا أدنى تردد وصاح لوسنشيو « هذا عجب وأى عجب ! » وقال هورتنشيو « ليت شعرى ماذا تريد كاثرين وماذا

تبغى بسلوكها الغريب هذا ؟ » قال بتروشيو « ما تريد سوى الأمن والسلام والهدوء والراحة وما تبغى سوى الخير والمعروف والوداد والمحبة » وصاح والد كاترين وقلبه يفيض سرورا « أجزل الله ثوابك يا بتروشيو ، لقد كسبت الرهان وسأضاعف لك مهر زوجتك فلقد يخيل إلى إنها خلقت خلقا جديدا » قال بتروشيو « لأرينكم آية أخرى على حسن طاعتها وخضوعها » وكانت كاترين قد عادت بالزوجتين العاصيتين فقال لها اسمعى يا « كات » ، هذه القلنسوة لا تجمل بك ، اطرحيها تحت قدميك » ولم يكذب لفظه حتى نزع كاترين القلنسوة عن رأسها وألقته تحت قدمها . فصاحت زوجة هورتنشيو « ما هذه المذلة والمهانة ! إني أعوذ بالله أن أصاب بمثل ذلك ! » وقالت بيانكا « هذا هو البله والجنون بعينه » فأجابها زوجها ليت هذا البله والجنون كان لك بدلا من كياستك وعقلك ، إذن لكنت وفرت على ما خسرته من الرهان الساعة » .

بايزيد

كان الأمير التركي سليمان جالسا في صدر ديوانه بين الحاشية والأتباع في
لجة من الفكر العميق ، وأوما إلى الحاشية بالانصراف وبقي معه ابنه « بايزيد » .

ودخل حارس الحرم ، نوبى أسود ، فقال له الأمير :

« امض هارون إلى خدر ابنتي زليخا فنادها فلقد قضيت عليها قضاء ما إخالها
ترضاه ، ولكنى مرغما عليه إرغاماً » فمضى هارون بأمر مولاه .

وهنا قام بايزيد فقال « إن كنت مؤثماً أختى زليخا على ذنب فإياى أنب ،
فأنا الذى به أغريتها وعليه حملتها - ذلك أنى حينما انتهيت الخداة من الوسن
راقنى رونق الصباح ، وراعنى جمال الطبيعة ، فقلت من كان يؤثر الكسل والقعود
فى هذه البكرة الطلة الموقنة ، وهذه الضحى البهجة المشرقة ، فأنا الذى يؤثر أن
يرتفع فى الحقول ، ويخوض لجج الأعشاب والبقول ، ويجتلى عجائب الماء
والسماء ، وغرائب الروضة الغناء ، وإذ كان ليس يتم السرور إلا باستصحاب
الرفيق المؤنس ، أسرعرت إلى خدر أختى زليخا فنبهتها ثم انحدرنا معا إلى مغارس
الأس والياسمين فتبوأنا من أرائك الروض حيث شغنا وتناشدنا أبيات كثير عزة
وجميل ومجنون ليل وأشعار السعدى والفردوسى والشيرازى ، حتى إذا حان
موعد الديوان هرعت إليك ، وتركت زليخا بين أكتاف الروض فى ظلال الجنان »
قال الأمير مغضباً :

« ألا يا ابن السبية وسليل النصرانية ! خاب فيك الظن وأخفق الرجاء ، إذ
جئت خلوا من كل مايزين الرجال ، ويجمل الكماة والأبطال . أحيما بلغت
أشدك وغلا فيك ماء الشباب وأن لك أن تكبح الفرس الجموح ، وترسل السهم
الطموح ، ألا يا ابن الكافرة ، وصنو الفاجرة ، ويا نصرانى الروح ومسلم النشأة ،
أحين صلب عودك ووثق ركنك وانتظر منك مجاذبة الأعتة وملاعبة الأسنة ،
رحمت وجل همك العبث بماء الينابيع ، واقتطاف أنوار الربيع ، فإليت أمك لم

تلك ، أو ليت أم الأنوار ، وجمرة النهار ، تلك التي أنت بضوئها مفتون ،
وبحسنتها مجنون ، كانت أفادتك من أوارها حرارة ، ومن نارها شرارة ، لكأنى
بك ، ورب البيت ، إذا داهمتنا طلائع الأعداء ، وقطعت من قومك الأوصال
والأشلاء ، بل لو دمرت إسلامبول مدافع الروس ، وزيت الإسلام حرب أشأم
من اليسوس ، ما تحركت فيك جارحة ، ولا علوت للمخطب الجسام صهوة
سابحة ، فامض لاقدست ، فاحمل على رأسك المخنث الطيب والغالية ، وأخضب
من كفك بالحناء كف غانية »

لم يفه « بايزيد » بلفظة وإن كان ذلك المهجاء قد أنضح كبده ، ولكن نار
الغضب تأججت في عينيه وتلظت ، حتى ريع الشيخ من لهب لحظاته المحتدمة
وأجفل ، فألان من سورته ، وسكن ثورته ، وقال « لا تغضبن بايزيد ، فإنني والله
أعلم منك بك ، ولا عجب فأنت لا تزال حدثا صغيرا ، ولو كنت أكبر سنا
وأشد ساعدا ، لكنت أعلم بالتنضال وأقدر على صراع الأبطال » .

ثم حلق الشيخ في الغلام فإذا الغلام يرميه بلحظ أحد من لحظه وأمضى ،
ويقابل كبريائه بأشد منه وأطغى ، فوجف الشيخ وقلق باله ، وقال بصوت خفى :
« إني لأوجس من هذا الغلام شرا ، وتالله ما أحبيته قط ، ولولا ما أعرف من
عجزه عن الفتك والبطش لخفت منه هذا اللعظ المحدد ، والطرف المهدد ، ودما
في عروقه مشاكلا دم أبيه الحقيقي ، .. ولكن كفى ، فالسكوت عن مثل هذه
الأمور أجمل وأمثل » .

وجاءت زليخا ، وكانت كأجمل من أقلت الغبراء وأظلت الخضراء ، أشرق
من الكوكب اللماع ، وأرق من زفرة الملتاع ، وأظهر من نطف السحاب ، ومن
دعاء الطفل المستجاب .

أقبلت زليخا منكسة الجيد تنثي على نهديها ذراعين عبتين ، بوجه أغر أبلج
كصفحة القمر الأضحيان :

وصلر مشرق النحر كأن ثديه حقان

ثم عمدت إلى أبيها ناشرة اللراعين لتعانقه ، فخارت عزيمة الأب وانتفض
ما كان في أمرها قد أبرم ، وتنازعت له عوامل الحب الأبوى ، والطمع الأشعوى .

وقال :

« زليخا ! قرة العين وقوت الفؤاد ! ما أسعد اليوم الذى يهون على فيه فراقك
زواجك من سيد شريف ، وماجد غطريف ، وأى الناس أنبل وأسنى وأشرف
وأسمى ، من أخى قبيلة قرزمان بناة العلى ، وحماة الحمى ، وليوث الشرى ، وسادة
الورى ، وحسب خطيبك نبلا أنه قريب « أوغول بك » وإنه سيد ضخم ،
وفارس شهيم ، قد سمعت به سنه المتقدمة عن طيش الشباب ، وشر الأزواج شاب ،
وسأصير بإضافة قوته إلى قوتى بفضل الله مهيبا ، وعند الخصوم والأعداء مرهوبا ،
أعاند الغشمشم الجبار ، وأناهد العرمرم الجرار ، والآن قد عرفت عزيمتى فيك ،
والحد الذى رسمته لك لتتزل على وتقفى عنده ، وبأمر الوالد فليصدع المولود ،
وما حكم الوالد على العلات بمردود » .

فأطرقت الفتاة وأمسكت الهيبة دمعها أن يفيض ، فتحير فى الآفاق لا ينهل
ولا يغيض ، وترددت وجنتها من الخجل والوجل بين صفرة البهار ، وحمرة
الجلتار ، ورصعت أهدا بها لألىء الدمع ، فبود الغرام أن تدوم تلك الآلىء مكانها
عنوان الجمال ، وخرج الخفر خديها ، فبود الغرام أن يظل تانك الوردتان ثمت
دلالة الدلال .

نهض الأمير فنادى صاحب خيله ثم خرج فى شردمة من فرسانه ، وخلف
زليخا وأخاها بايزيد وحدهما ، وأحزن الغادة أن رأت أخاها فى غمرة من الحزن
والجوى ، ثم نادته فلم يجب ولم يسمع ، ودنت منه فإذا هو ساهى الطرف
شاخص البصر ، وكانت تعلم أنه يحب العطر فجاءت بفارة من المسك ففضتها
عليه فلم يحفل ولم يكثرث ، فوضعت بين يديه زهرا أوريحانا فلم يعبا ولم يلتفت ،
فأقبلت عليه قائلة « واغوئاه ! أرفضا لهديتى وإعراضا عن مقالتي ؟ بايزيد يا نور
عيني ويا سويداء مهجتي ! خبرني ، أمتنى تخاف ، وإياى تبغض ؟ إلى بايزيد !
وسد جبينك صدرى ، أطفئ بالعناق لوعتك ، وأبرد بالتقبيل غلتك ، قد أعلم
أن لأبى أحيانا غلظة وقسوة ، وفيه فظاظة وجفوة ، ولكن لا تنس أن لأحتك
قلبا عليك خفاقا ، وحشا عليك أبدا الدهر مقلقا ، وربما أحزنك ما قد أزمع
أبى من أمر هذا القران ، ولعل بينك وبين خاطيى كمين أحقاد وأضغان ، فأما

والرامين بالجمار ، والكعبة ذات الأستار ، لا يمسن امرؤ ذيل بردتي دون رضاك
كائنا من كان ، ولو أنه السلطان ، أنحسب بايزيد أنى أطيق بعدك ، أو أجد للحياة
لذة من بعدك ؟ وأى العيش يصلح من دونك ؟ أنحسب بايزيد أنى أطيق أن أشرك
فى حبى إياك أحدا حتى ولو كان زوجا ؟ أترانى قادرة أن أنظر أبدا الدهر بعين
الحبة إلى غيرك ؟ لا كان قط ذلك اليوم الذى يختطفنى فيه من أحضانك رجل
غريب يسمونه زوجا ! لا كانت ساعة تزورنى فيها أعناق المطى عن كفك !
ولا والله ما كان عزرائيل نفسه ليستطيع أن يفرق بين روحى وروحك ، وما كان
ملك الموت أن يقبضك إلا وأنا على أثرك ، وكما نحن الآن على ظهر الأرض
ممتزجان ، فكذاك تحت التراب يمتزج منا الجسدان ، وفى الجنة أو الجحيم
يلتصم الروحان »

لقد تحرك بايزيد ، لقد أفاق من غشيته وانته من رقدته ، ثم حنا على الفتاة
فأنهضها وكانت بين يديه راکعة ، وتأججت روح الفتى بايزيد فى عينيه ،
وانبعثت فى لحاظه خفايا ضميره وخبايا سريره ، فلا وربك ما البرق الخاطف
فى حاشية السحابة السوداء ، ولا الكوكب المنقضى يخوض أحشاء الظلماء ،
بأسرع لها وأسطع ضراما من وميض روح بايزيد يستعر بين أهدايه الوظفاء ،
ولهب عاطفته يأتج فى سواد مقلته الدعجاء ، ولا الفرس الجموح هاجه نداعى
الفرسان ، والأسد الطموح أثاره تصايح الذؤبان ، بأخف نهضة وأسرع وثبة ،
من بايزيد حين سمع من الفتاة هذه اليمين ، والقسم المبين ، فسار سورة الأفوان ،
وأعلن ما لم يزل يكنه الجنان من أسرار خطيرة طالما أسدل من دونها حجاب
الكتمان ، قال :

« والآن - وليس قبل الآن - أيقنت أنك منتظرين قريبتى مدى الدهر وشريكتى
فى الحياة ، واعلمى أن فى تلك اليمين التى حلفتها الآن شريك لك فهى تربطنا
معا بأوثق عرى الحب والوفاء ، فاكتمى يارعاك الله سر هذه اليمين ، إني لأعرف
ذلك الوغد الذى اجترأ أن يخطبك إلى أبليك ، وأشهد أنه شر الناس وأخبث من
وطئ أديم الأرض ، ولكن دعينا من هذا ، وحسبك الآن ما سمعته منى الساعة ،
وستعلمين البقية فى أول فرصة تسنح ، وسأترك قضية الوغد الخسيس الذى جاء
يخطبك ليقضى فيها غرار نصلى ونصال زمرتى ، فإن لى لزمرة أمضى من

السيف ، وأفتك من الختوف ، وإنى والله :
سأطلب حتى بالقنا ومشايخ كأتهم من طول ما الشموا مرد
تقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا كثير إذا شدوا قليل إذا عدوا
قالت زليخا وهى تضمه وتقبله :

« واغوثاه ! إن شفتيك تلتهبان ، وإن لمرجل الغضب فى صدرك أشد فوران ،
وتالله لقد أعديتنى فمهجتى فى استعار ، ووجنتى فى احمرار . هاك أبى قادما ،
ولكنى لا أسر بقدمه ولا أرتاح للقياء ، وأرى قلبى ينفر منه ويجفل ، فهل ترى
لذلك الشعور الغريب من سبب ؟ »

قال بايزيد :

« دعينا من ذلك الآن ، فعما قريب تعرفين سر ذلك وكل ما عداه من أمور
قد بقيت إلى الآن عنك مستورة ، وارجمى إلى خدرك فإذا مضى من الليل هزيع
فارقبى منى وقد رقد القوم إليك أدهى من زورة الذئب ، ثم نسرى معا
فى جناح الليل وتحت جناح الظلماء إلى مكان خفى . إن معى مفتاحا لباب
خدرك ، وقد رشوت الحراس ، وعند اللقاء تسمعين منى النبأ العجيب ، والسر
المدهش الغريب ، فإن لى لباطنا خلاف ما ترين ، والآن اذهبى فى سلام »

فى جناح الليل البهيم أسرت زليخا وبايزيد تحت ظلال الأجم الكثيف حتى
لجآ إلى غار عن الأبصار محبوب ، وراب الفتاة من رفيقها أنه كان مدججا فى
السلاح ، كامل العدة ، فقالت :

« جعلت فداك مامعنى كل هذا التأهب والاستعداد ؟ »

قال بايزيد :

« أولم أنبئك أبى غير ما تعهدين ، وإن لى لشأنا خلاف ما تعرفين ، ما هجس
لك قط فى فؤاد ، لافى يقظة ولا فى رقاد ، وعبثا أكتمك الآن قصتى ، وأخفى
عنك حقيقتى ، وخلاصة ذلك السر الخطير يا زليخا هو أبى لست لك أخوا ،
فلا تنزوى أحدا خلافى ! »

فصاحت الفتاة :

« لست أخى ! رحماك اللهم ! لست أخى وكذلك أعيش فى الدنيا منفردة وحيدة ، أبكى فقد الشقيق ، وأندب عدم الصديق ، وأحر قلباه ! وهكذا أقفر لى قلبك من الحب والمودة ، بل ربما أضحك عدواة وودادك كراهية ، ولعلك ما جئت بى إلى ههنا إلا لتقتلنى ، فإذا صح هذا فحبذا الموت إن سرى ، وما أعذب الحمام إن كان فيه رضاك ، ولرقة الموت أروح على من الحياة من دونك ، فإن لم أكن أحتك كما تقول ، فهلا استبقيت بامتلاك رقى فأظل فى حوزتك إلى الممات مملوكة ؟ »

قال بايزيد :

« مملوكة لى يا زليخا ! حاشا ياقرة العين ! بل عبدك أنا وملك يمينك ! ولكن هونى عليك وأيقنى أنه لن يفرق بينى وبينك شىء ولا الممات ذاته ، واعلمى بعد أن أباك سليمان ليس أبى ولكنه عمى ، وكان قد طمع فى منصب أبى وأنا طفل صغير قتلته غيلة وجلس مكانه . ومنذ ذلك الحين لم أجد منه عطفاً قط ولا رحمة ، وما برح يهزم بى ويستوحش ويرانى كالشبل الذى يخاف بعد مصرع الأسد شره ، ولا يؤمن أذاه وضريره ، وما أخطأ ، فإن دم أبى لا يزال يحمى فى عروقى ويثور ، ومرجل الخنق يغلى فى مهجتى ويفور ، وحاول أبوك بعد اغتيال أبى أن يبقى الخبير عنى مكتوماً فأنشأ منه على جهالة ، فبنانى مسيئاً عشرتى ، مدمنى مساءتى ، فقضى على أن أبقى وسط النساء فى الحجال والخلدور فلا أتعلم الفروسية ولا الرماية ولا الكر فى الميدان ، ولا مناجزة الأقران ، ومصالوة الفرسان ، وكنت قد ورثت حماسة أبى وفتوته ، فلم يلائم مزاجى الحار المتوقد عيشة الليل والقصور ، ولا ناسبت سليقتى القلقة الجياشة عشرة الخرد الحور وكان هارون خادمكم ، عبد أبى من قبل وحارس حريمه فعز عليه ما جرى ، وأذعن على مضض وكنت أحب إليه من روحه الذى بين جنبيه ، فكان يجد فى كتمان الأمر عنى عبثاً على صدره ونارا تشب فى جوانحه لا يطفئها إلا إفشاء السر لى ، ففعل ، ثم شق عليه أنى أشب « كمن ينشأ فى الخلية وهو فى الخصام غير مبين » ، واتفق أن أباك خرج فى سياحة دامت ثلاثة أعوام فانتهاز هارون الفرصة فأطلقنى من إسرائى وأبحرت مرة على زورق أذانى إلى بعض تلك الجزائر التى ترصع ديباجة الموج ، وترقش جلدة اللج ، فلقيت بها عصابة ناهيك من عصابة !

قد احتقروا سلطان الحكومات وصوله الملوك والقيصرة ، فخرجوا من رق القوانين
وسلطة الشرائع :

مساعير للهيجا ، مناكير للخنا مصاييح فى الجلى ، مساميح فى الندى
أعمارهم معلقة بأطراف الأسنّة المطرورة ، وشريعتهم مرقومة على متون
الصفائح المشهورة ، مهادهم الأرض والماء ، ولخافهم الهواء والسماء ، طعيامهم
فى أوتار القسي ، ومخالب البازي ، وكسيهم معقود بتواصى العناق الضامرة ،
وشغار الرقاق الباترة ، أبناء صحراء ، وجواب ظلماء ، وعفاريث هيجاء ، أسود
غاب وأسود لصاب ، إخوان فى الشدة والرخاء ، وأعوان على السراء والضراء ،
الملل والعقائد عندهم سواء ، لا دين لهم إلا الحلف والإخاء ، تلك صفاتهم وإن
لم يكونوا إلا قراصنة وسفك دماء ، فلما نبأتهم خبرى ، وأعلمتهم حقيقة أمرى ،
وكشفت لهم عن حسبي ونسبى ، ومن كان فى سالف الدهر أئبى ، اطمأنوا لى
وسكنوا ، ثم دانوا لى وأذعنوا ، وجعلونى زعيما لهم وقريبا ، وكلهم صار لى
سبيعا مطيعا ، وأحسنوا قرأى ، وأكرموا مثواى ، فأكثرث نحوهم مسيرى
ومسعاى ، وأدمنت إليهم مراحي ومغداى ، وعلمونى الرماية والنضال ، وصك
النصال بالنصال ، حتى أدركت فى فتون القتال الغاية ، وبلغت فى أساليب الحرب
النهاية ، فلو رأيتى ثمت لرأيت رستم وصهراب ، وعتية بن الحارث بن شهاب ،
وعترة وزيد الخيل ، وريعة بن مكدم وعامر بن الطفيل ، وأخلصوا لى الوفاء ،
ووعدونى قضاء كل حاجة لى ومأرب ولو كان دونه الجوزاء :

جزى الله خيرا طيئا من عشيرة ومن صاحب تلقاهم كل مجمع
هم خلطونى بالنفوس ودافعوا ورائى بركن ذى مناكب مدفع
وقالوا تعلم أن مالك إن يصب نقدك وإن تحبس نزرک ونشفع
والآن لم يبق لنا فى هذا البلد مجال ، وماذا أشنع من اغتصاب أهلك حقت
المقدس فى حرية اختيارك الزوج وشريك الحياة ، وأخذهم إياك منى عنوة وقسرا
لتكونى زوجة لذلك القدم الأحق البليد ، وماذا يضطرننا إلى ذلك - وإنه الموت
بعينه - مادمنّا على الفرار قادرين ، إن هى إلا وثبة من هذا الشاطئ إلى ظهر
السفين ، حتى يذهب عنا البلاء ويبين ، وماهى إلا التحذار على الماء ، حتى يموت

اليأس ويحيا الرجاء ، وإنى أرى شبح الغرام يتسم لنا نغره ويتهلل بحياه ، وطلع السعد توميء إلينا بناته وتلحظنا مقلاته ، ولقد بنيت لك فى بعض هذه الجزر قصرا كأنه قطعة من الجنة ومن دونك حراس وأرصاد ، أولى بأس شداد ، وعصبة لا ترى فى تجرع الحمام من دون حريمها أدنى حرج ، ويحطوك منهم ويكلوك أنصار أوفى ذمة من الأوس والخزرج ، ولقد أطلعت هؤلاء الأنصار على ما اعترته من الفرار بك إلى جزيرتهم فسروا بذلك أيما سرور ، وقالوا نفديك وخطيبتك بأموالنا وأرواحنا ، ولن تجدا منا سوى غيب أرقاء ، ولأدنى إشارة منكما رهنا ، وهاك نقرا منهم بذلك القارب القريب من الشاطئ ، فهلما يا نزهة النفس ، ومتعة خاطر ، هلمى .

وقبل أن تجيبه الفتاة لاح ضوء المشاعل فصاحت « انج بنفسك بايزيد فإنى أرى الشر فى هذا الشعاع يستطير » ، وظهر سليمان فى جنوده شاكى السلاح ، شارعى الرماح ، يفتشون وينقبون ، والأمير وسطهم يرغى ويزيد ، ويرق ويرعد ، واقترب من الغار الجنود ، وثبت بايزيد مكانه بخافض الجأش رحب الذراع ، وقال « زليخا قضى الأمر فرودينى قبله لعلها الأخيرة . زليخا أستودعك الحى القيوم ! آوى إلى الكهف ولا تراعى ، فأبوك أشفق عليك من أن ينالك بسوء ، وإن كنت تخشين على أيك ذباب صارمى ، فوالذى أعار السحر عينيك ، والجلنار وجتتك ، ما كنت لأمسه بضر ولو أعمد فى حشائ حسامه » .

ثم كر على الأعداء كرة الليث الغضنفر ، فجندل فارسهم ، وعطف على ناليه فشطره شطرين ، جسما يخفق ، ورأسا يشهق ، ثم عززهما بثالث فبراع وأحرق به الجند فأتخن فيهم الجراح وأعمل السيف ذات اليمين وذات اليسار ، فلم تر إلا أوصالا تطيح ، ودماء تسيح ، وأشلأ ممزقة ، ومهجا على سيف بايزيد مهركة ، فاندحر الجنود عنه فتشردوا .

يهزم الجمع أوحده ويلوى بالصناديد أيما إلواء ، ودلف إلى الشاطئ حتى بلغ الساحل وبدا له الزورق الحامل أعوانه ، وصافحت قدماء حافة الماء ، ووافاه الزورق على قنر ، لله در بايزيد ، لماذا لم يشب إلى القارب فينجو ؟ لقد حن قلبه إلى حبيبته فوقف ثم استدار ، يستقبل الغار ، ويستدبر التيار ، واشرب نظره إلى

الحبيبة ويرى ماذا أصابها ، ولم يصبها بلحظه ولكنما أصاب أجله ولقى حتفه ،
إذ أصمت فؤاده رصاصة أنفذته فخر على أكف الموج قتिला .

زليخا ! إنك لم تشاهدى مصرع بايزيد ، وكيف كنت تشاهدينه وأنت جثة
هامدة ، فى سبيل الله يا أطهر الفتيات ، لقد أسلمت روحك الطاهرة حيثما
أسلمت بايزيد إلى يد القدر ! وحينما ودعك الحبيب ، ودعك صفو الحياة والنفس
الأخير ، وإن من اليأس ما يقتل لحينه ، فرحمك الله رحمة واسعة وأسكنك فسيح
الجنان !

تاجر البندقية

كان بمدينة البندقية (فينيسيا) يهودى مراب يدعى « شيلوك » قد جمع من الربا مالا جما ، وكان شديد الحرص ثقل الوطأة على معامليه ممقوتا لديهم مبغضا إليهم . وكان أحد تجار هذه البلدة المدعو « أنتونيو » على النقيض والعكس من ذلك اليهودى ، يسعف الملهوفين من ذوى الحاجات ولا يتقاضى على ذلك أرباحا ، ذلك إلى ما شئت من رقة ودمائة ورأفة وحنان ، ومن ثم نشأ العداء والبغض بين هذين الرجلين . فكان أنتونيو إذا لقي اليهودى فى الغرفة التجارية أنحى عليه باللائمة وعدد مساوئه ومخائبه . واليهودى يطوى كشحا على تلك المطاعن والأهاجى إغضاء على القذى ، وإساعة للشجى مع إضمار الحقد والضغينة .

وكان لأنتونيو هذا صديق حميم يدعى باسانيو من أشراف المدينة ، قد ورث عن أبيه مالا غير وافر لم يكن يتناسب مع ما تمادى فيه من أساليب الترف والرفاهية ، فما لبث أن بدد أكثره ، وكان أنتونيو لا يزال يمدد بكل ما يحتاج إليه لا يدخر دونه شيئا .

فأقبل باسانيو على صديقه ذات يوم فقال له : « لا يخفى عليك يا صديقى أننى طالما أسرفت فى النفقة لأكتسى من أبهة الترف والنعمة ما تقعد بى عنه رقة حالى ونزارة مادتى ، وها أنذا اليوم قادم على أمر ربما كان من ورائه الخير الجزيل والثراء الأوفر . ويبان ذلك إن فى بلدة « بلمون » غانية ذات ضياع وأموال - إلى حسن نادر وأدب فائق وجمال بارع وكنت أزورها لعهد أبيها ، فكانت ربما خالستنى لحاظها رسائل حب صامته ، ونجوى شوق خافته ، واسمها بورشيا ، وما أراها أحقر شانا من سميتها « بورشيا » زوجة بروتاس بطل أبطال الرومان الأشهر ، وما أمرها يا صاحبي بخاف على أهل المشرق والمغرب ، فالخطاب من عظماء الرجال يقصلونها من مهاب الرياح الأربع . وقد أصبحت غداثها الذهبية أبعد فى الآفاق صيتا وأند شهرة وذكرنا من « الجزيرة الذهبية » ، وبلدتها « بلمون »

ويتسمون فاغية رضوانها ، فلو كان عندي من المال ما يمكنني من منافستهم ومساجلتهم لألقيت دلو في الدلاء وكنت قمينا أن أفوز بالغانية من دونهم .
بذلك يحدثني قلبي ويتبني ضميري .

عندئذ قال أنتونيو : « قد تعلم أن أموالى كلها اليوم فى البحر وعما قريب يرجع إلينا بعض سفائى المشحونة ، فامض بنا إلى اليهودى شيلوك نقترض منه ما يكفيك من المال على ضمان سفنى الغائبة »

ثم مالبا أن أتيا شيلوك ففاتحا فى الأمر وكلماه فى أن يقرضهما ثلاثة آلاف « دوكة » بما يقترح من الأرباح على أن يسدد هذا القرض من سفنى أنتونيو متى عادت . قال اليهودى فى نفسه « أما لو مكنتى القدر من مقاتله لكرعت فى دمه فشفيت منه داء قديما ، وأطفاأت جمرة غل أوقدت على كبدي حميما . تبالة ، لشد ما يمقت شعبنا المقدس . لقد طالما هزأ بى وسخر فى أحشد المحافل من كسبى الحلال يسميه ربا . فلعنتى الله لعنة أبدية إن غفرت له ذلك » فلما رآه أنتونيو كأنه يناجى نفسه وقد انصرف عنهما مليا قال له « انتبه إلى يا شيلوك هلا أقرضتنا ذلك المبلغ ؟ » فأجاب شيلوك « أيها السنيور أنتونيو . كم من مرة بالقرعة التجارية أوسعتنى سبابا من جراء مكاسبى فاحتملتها منك على مضض ، وكان احتمال الأذى شعار أمتا . إنك لتبذنى بالألقاب تدعونى جهنميا وكافرا وشيطانا وكلبا وسفاكا للدماء سفاحا ، وتبصق على رداي وإنه لشعار أمة إسرائيل ، وكل ذلك من أجل تصرفى فى مالى وملك يدي . والآن إذ أصبحت بحاجة إلى نجيتنى فنقول « شيلوك إني إلى مالك لاحتاج - تقول لى هذا ، أنت الذى كنت تبصق على لحيتى وتركنى برجلك كما تركل الكلب الفار من دارك ، بماذا أحاطبك الساعة ؟ أأست خليقا أن أجيبك قائلا « أأكون للكلب مال ؟ أأستطيع الكلب أن يذل ثلاثة آلاف دوكة ، أم ترانى أخضع لك وأركع ، وبلهجة العبد الذليل أقول لك بصوت غضبى ونفس قطيع » مولاي ! لقد بصقت على يوم الأربعاء ، ورمعتنى بقدمك يوم الثلاثاء ، ودعوتنى كلبا تارة وأخرى وحشا مفترسا ، ومن

أجل هذه المبرات والحسنات الطيبات أقدم إليك من المال ما تطلب »
قال أنتونيو « وما أجدرني أن أعيد عليك الكرة فأبصق عليك وأركلك
بقدمي . لا تقرضني المال على أنني صديق لك بل عدو ويستحق منك أشد الجزاء
إن أخلف معك ميعاده »

قال شيلوك « مهلا مهلا ولا تغضب . تالله ما أردت سوى مضافاتك
وموالاتك . وبعد فلأصفحن عن كل ما نلتني به من مساءة ، ولأطوين صحيفة
الماضي ثم لن أخذ منك أرباحا . أفلا يرضيك هذا على حسن نيتي دليلا ؟ أمض -
بنا إلى أحد كتاب العقود ولننحرر على مسيل المزاح والفكاهة صكنا مضمونه إنك
إن عجزت عن دفع القرض في موعد مضروب ، كان لي أن أقطع من لحمك
رطلا اختاره من أي موضع في جسدك »

قال أنتونيو « إني أقبل ذلك وأشهد بعد ذلك أن اليهودي على جانب عظيم
من البر والمروءة »

عندئذ تدخل في الأمر باسانيو فقال : « كلا والله ما كنت لتوقع على مثل
هذا الصك من أجلي »

قال أنتونيو « عجا لك ! ما أحسب الأمر بالغا بي أن أخسر هذا القدر من
جسدي . فما هي إلا أيام حتى يحصل لدى أضعاف هذا المبلغ فما خوفك ؟ »
وقال شيلوك « يا لإسرائيل لهؤلاء النصاري ، لقد أصبحوا لفرط قسوتهم
يتهمون الأبرياء بسوء النية . رأييت لو أخلف السيد أنتونيو ميعاده ماذا كنت
مستفيدا من رطل لحم من جسده . أليس لحم الضأن والماعز ألد نكهة ومذاقا من
لحم الإنسان وأرخص ثمننا ؟ إني أبذل له ودي ابتغاء مرضاته فإن أحسن بي الظن
فمرحبا وإلا فسلام عليكما » وانتهى الأمر بتوقيع أنتونيو على الصك بالرغم من
معارضة باسانيو « وقد حسب أنتونيو أن الأمر لم يعد مجال المزح والدعابة .

ولما تزود باسانيو بالمال المقرض من شيلوك على تلك الشروط الخطرة ، انطلق
من توه إلى قصر بورشيا - تلك الوارثة الحسنة - ببلدة بلمون ، وصحبه في رحلته
صديق له يدعى « جراشيانو »

كان والد الفتاة بورشيا قبل وفاته آلى على ابنته أن يكون زواجها بطريقة القرعة

صورتها ، واشترط عليها أن لاتتزوج إلا من يختار الصندوق المشتمل على الصورة . فجعل الأمراء والفرسان يتوافدون عليها من أقاصى الأرض يخطبونها ، فتقدم الصناديق ليختار الخاطب منها ، فما من أحد أصاب الرمى وكلهم عاد بالفشل والخيبة .

وبينما الفتاة بورشيا تحدث خادمتها نيريسا ذات يوم فى غرفتها أنبأها الخاجب أن فتى من فينسيا قد حل بساحة القصر خاطبا ، فقالت بورشيا هلمى بنا نيريسا إن قلبى ليتوق إلى رؤية هذا القادم » فقالت نيريسا ليه باسانيو ! إله الحب أسأل أن يكون باسانيو ! »

ولما استقبلت بورشيا ونيريسا صاحبنا باسانيو وصديقه جراشيانو بغرفة الاقتراح ، كان أول ما فاحت به بورشيا لخاطبها الجديد « ناشدتك الله يا سيدى ألا ما تمهلت يومين أو ثلاثة قبل المجازفة ، فإنك إن أخطأت الهدف خسرت صحتك أبد الأبدن . إن فى قلبى لهاتفا يناجبنى إنه لا ينبغي أن أحسرك . ألا بعدا لهذه الأقدار القاسية لقد حالت بين الحق وصاحبه »

قال باسانيو « دعبنى إلى حظى وقسمتى ، فإنى والحال هذه على مضض » قالت بورشيا على مضض من الجلوس معى ؟ خبرنى يا باسانيو ، أى شائبة غدر تشوب حبك لى ؟ »

قال باسانيو « حاش لله لن يشوب الغدر حى إلا إذا صح أن يشوب الثلج النار ، والليل النهار ، ولكن هلمى بنا إلى الصناديق الثلاثة فقد عيل صبرى » ..

وهنا يرفع ستار صفيق عن الصناديق الخطيرة وتقول بورشيا « هذا مضمار القدر فاتبه أيها الفارس المغوار إلى قصب السبق وأقصى غاية المراد ، وتعلمن لئن كنت تحببى حقا فهناك إلى صورتى كوكب الحب ذو الطالع المسعود فى دياجير الشك القاتمة . أيها الغلمان تنحوا جانبا وأطلقوا نغمات الموسيقى ريشما يختار ، فلئن خاب وأخفق ، كان فى خاتمة أمره أشبه بطائر الماء يلفظ آخر أنفاس الحياة وهو يصدق بالهدل ويترنم ، وتكون عينى الباكية له إذ ذاك ضريحا مائيا وقبرا متدفقا لجيا ، وإذا فاز فما الموسيقى إذن إلا بشير الظفر والفلاح تحية الرعية لملكها المتوج ، وتكون تلك النغمات كألحان بلايل الأسحار ، وعزفات النسائم على

عذبات الأشجار ، توقف العروس من أحلامه لشعائر الزفاف والسعادة »
وهنا تصدح الموسيقى ريشما يندى باسانيو آراجه عن الصناديق الثلاثة ، فيقول
يخاطب الصندوق الذهبي « يا طالما كذبت الحقائق المظاهر ، وناقضت السرائر
الظواهر ، ويارب شوهاه في حشا حسناء ، وخشنة في غمد ملساء ، وكم من
هياة رعديد ، يستشعر جرأة البطل الصنديد ، وكذلك الزينة والزخرف إن هي
إلا ساحل لبحر كله أهوال وأخطار ، وأحبولة تنضب لأولى الأكياب والأخطار .
لذلك أرفضك أيها الذهب المشرق ، وأرفض معك اللجين المتألق ، وأختارك أيها
الرصاص المتواضع وإن كنت بالنذير ، أشبه منك بالبشير . إن في كسوف مرآك ،
وشحوب مجتلاك ، ما يحرك منى ما لا يحركه النصار النضير ، واللجين المنير »
فصاحت بورشيا إن هواجسى لتبدد في عاصفة هذا المرور ، وإن وساوسى
لتهزم كجيش الظلماء أمام جحافل النور . أعطوه مفتاح الرصاص »
وهنا يتقدم باسانيو إلى الصندوق الرصاصى فيفتحه فيجد صورة بورشيا فيقول
« ماذا أرى ؟ صورة الحسنة بورشيا ! لقد كاد المصور أن يشارك الخلاق في
صنعتة .

وعينان قال الله كونا فكائنا
أحركة في هاتين العينين ، ثم هما قد جلسا فوق عيني فمن ثم تتحركان !
وهذا الثغر الوماض

كأنما تبسم عن لؤلؤ منضد أو يرد أو أقاح
لقد فرقت بين ياقوت تينك الشفتين ، ولآلىء ذينك السمطين . أحلى أنفاس
معسولة الجنى لا جرم ، فما كان ليفرق بين أشهى توأمين سوى أحلى حجاب !
قاتل الله المصور ، لقد نسج من طرتها الصهباء أبدع شبكة تقتنص العقول احتبالا ،
وتختلس المهج والقلوب اختبالا . ولكن كيف ترى الأصل قد فاق الصورة فيهرها
كما تبهر الشمعة جمرة النهار ، ويسبق السايح الماهر من أوشك على الفرق في
لجة الزخار . »

وينظر في الصندوق فيجد رقعة فيتناولها فإذا بها :
« يا من لا تغره القشور ، ولا ينخدع بالضلال والزور . اغتبط بالقسمة

والمقدور ، ولا تبلغ به بدلا حتى تواريك القبور . لقد سعى عليك الحظ بأكواب
الخبور ، ودون لك القلم في أم الكتاب أيمن سطور . فإن كنت بنصيبك ذا
سرور ، فارشف من رضاب أعذب الشفور ، شفاء الغلة وبرد الصدور »
وهنا يقبل بورشيا ويقول « إني لفرط غبطتي لا أكاد أعرف أفي يقظة أنا أم
في منام أحلام ، وهذه حقيقة أم خيالات أوهام ، وكذلك لن يقر لي قرار ، حتى
أفوز منك بإقرار » .

قالت بورشيا « إني ملك لك على أنني أراك إذ ظفرت بي لم تظفر بنفيس ولا
جلال ، فلست سوى فتاة غير عالمة ولا مهذبة ، ولا ذات أدب بارع ولا لب
رائع ، ولكنني قابلة لتأديبك وتهذيبك ، أصغى لإرشادك ، وأذعن لآقتيادك ،
وأراك سيدى وحاكى ومليكى ، وإني وما ملكت يداى رهن إشارتك ، وطوع
بنائك ، فقصرى وضيعتى ، وعقارى وثروتى ، وحاشيتى وبطانتى ، أقدمها
جميعا إليك مع خاتمتى هذا ملكا لك مباحا ، وإياك أن تفرط فى هذا الخاتم
فإن ذلك منك غدرا صراخا » .

فقال باسانيو « سيدتى لقد قطعت لسانى ، وسلبت بيانى ، فليس يخاطبك
منى سوى دمي فى شريانى » .

وهنا قال جراشيانو صديق باسانيو « أسأل الله أن يسبغ عليكما من النعم
والآلاء ، ما لو وزع على أهل الأرض لم يبق على أديمها أسوان ، ولأصبحت
الأحزان أسماء بلا معان . بيد أنني أرجو متى شرعتما فى إقامة شعائر القران أن
تأذنا لى أنا أيضا فى الزواج ... »

قال باسانيو « أجل منى وفقت إلى زوجة » قال جراشيانو « أشكرك يا سيدى
فلقد حصلت لى أنت على زوجة ، ولا يخفى عليك أنك إذ أحببت السيدة أحببت
أنا الوصيقة ، ولما عولت وصممت ، عولت مثلك وصممت ، وكما كان حظك
على الصناديق الثلاثة موقوفا ، كان حظى مثلك بها رهينا . ولقد والله أنضيت
لسانى ، وأنقذت جعبة بيانى ، فى استرضاء الفتاة نيرسا واستمالتها ، واستدرار
سحب عطفها واستلباتها ، إلى أن أبت منها بوابل ، وبؤت منها بطائل ، بعد
أن تحلب عرقى ، وجف سقف حلقى ، وقد وعدتني خيرا متى فزت أنت بالخير

بطائل ، بعد أن تحلب عرقى ، وجف سقف حلقى ، وقد زعدتنى خيرا متى
فزت أنت بالخير من مولاتها .

فوافق باسانيو وبورشيا على هذا .

وبينما هم فى ذلك دخل عليهم رسول يحمل صحيفة من أنتونيو . فلما فضاها
باسانيو وأخذ يتلوها أربد وجهه ، فأوجست بورشيا سرا وسألته ما خطبه ، فقص
عليها حديث صاحبه أنتونيو وما كان من اقتراضه من اليهودى شيلوك ماسد به
عوزه ، وأعانه على الرحلة إليها ، وما كان من إخطاره حياته على نحو ما تقدم
شرحه من أمر ذلك الصك الدموى إلى آخر ما سلف تبيان ، ثم ختم مقاله بتلاوة
الرسالة الآتية :

« صديقى الحميم باسانيو . لقد أغرقت سفنى برمتها ، وتعر لى الغرماء
واستأسدوا ، ولقد ساءت حالتى ، ونضب معين مادتى ، وحل موعد السداد
ولا سداد . وإذا كان الوفاء بعد اليوم لن يكون إلا من دى وفيه حضى ، فإن فى
نظرة إليك أزودها قبل موتى لعوضا عن كل ما أصابنى . وعلى أية حال فالأمر
فى ذلك إليك ، فإن أبت حبيبتك هذا اللقاء ، فلا تجعل من رسالتى هذه ذريعة
إليه وسببا »

قالت بورشيا « وكم على صاحبك لليهودى ؟ » .

فأجاب باسانيو « ثلاثة آلاف دوكة ؟ »

قالت بروشيا « فقط! ادفع إليه ستة آلاف ، اثنى عشر ألفا ، أربعة وعشرين
ألفا ، ومزق ذلك الصك يمثل هذا المبلغ وأضعاف أضعافه . يجب أن نفتدى
أدنى شعرة من جسد أنتونيو . اذهب توا إلى فينسيا ، فتالله لن يحتويك وزوجك
فراش حتى يبرأ ضميرك من كل شائبة ، وسنزودك من الذهب بعشرة أضعاف
هذا الدين . ومتى قضيته فعد إلينا بصاحبك ، وفى أثناء غيبتك أعيش ونيريسا
عيشة الأرمال والعذارى »

ولما عاد باسانيو وجراشيانو إلى فينسيا ألفيا أنتونيو فى غياية السجن .

فعرض باسانيو على شيلوك المبلغ المطلوب فأبى إلا تنفيذ شروط الصك واقتطاع
رطل من لحم أنتونيو . وأخيرا حددت جلسة للاحتكام فى هذه القضية المنكرة

جمر الغضا ..

أقبلت بورشيا بعد ذهاب زوجها باسانيو تندبر تلك المعضلة العويصة ، وتقلب وجوه الرأى لإستباط حيلة تخلص بها أنتونيو . وكانت بورشيا نادرة دهرها ، وبكر زمانها ، إربة ودهاء ، وفطنة وذكاء ، وكانت تخفى خلف منظرها الغض الرقيق عزيمة الأبطال ، وتطوى تحت مظهرها الحلو الأنيق صرامة صناديد الرجال . فعولت على أن تذهب إلى فينسيا وتحتال حتى تقعد على كرسى القضاء ، ثم تتولى بنفسها الحكم فى تلك القضية .

وكان من بين أقاربها رجل يشغل منصب مستشار قضائى فى محاكم فينسيا يدعى بيلاريو . فأرسلت إليه بيانا عن القضية وعن رغبتها فى أن تجلس بنفسها على منصة القضاء للفصل فى ذلك المشكل ، واستمنحته نسخة من قانون البلاد وحلة من ملابس المحامين .

فما لبث أن عاد إليها الرسول بكل ما طلبت . حيثئذ تنكرت هى ونيريسا فى زى الرجال ، وارتدت طيلسان القضاء ، واستصحبت وصيفتها بمثابة كاتب لها . وكذلك أسرعتا إلى فينسيا فبلغتاها يوم المحاكمة .

وبينما الجلسة منعقدة والدوق على كرسى القضاء من حوله أساطين القانون ومداراه فى دار الشيوخ ، إذ دخلت عليهم بورشيا فقدمت إلى الدوق كتابا من المستشار بيلاريو يعتذر عن الحضور لمرض أصابه ويرجو قبول الأستاذ بلساذار « هكذا أسمى بورشيا » لينوب عنه فى الدفاع عن المتهم . فقبل الدوق ذلك متعجبا من حدائه سن ذلك القادم الغريب .

وحيثئذ ابتدأت تلك المحاكمة الخطيرة العجيبة الشأن .

وأجالت بورشيا نظرة فى المجمع الحافل ، فأبصرت اليهودى الغليظ القلب ، وأبصرت باسانيو ولكنه لم يعرفها ، وكان واقفا إلى جانب أنتونيو يكاد يغمى عليه جزعا على صاحبه .

وكانت رهبة الموقف العظيم قد ضاعفت جرأة الفتاة وشحذت من صرامتها وبأسها ، فخاضت من ذلك المأزق حومته كالكمى المدجج ، وجابت حلكتة كالكوكب المتوهج .

ويقول الدوق لبورشيا مرحبا أيها الأستاذ الجليل ، خذ مكانك . أتعرف
المشكل الذى تقوم حوله الخصومة ؟ »

بورشيا « أعرفه بخدافيره . أين اليهودى والتاجر ؟ » قال الدوق « شيلوك
وأنتونيو ! »

بورشيا إلى أنتونيو « إنك لمهدد بأعظم الخطر . أتعترف بصحة العقد ؟ »
أنتونيو « نعم أتعرف » بورشيا « إذن فالرحمة على اليهودى واجبة »
فيقول شيلوك « من أين هذا الوجوب ؟ »

بورشيا « الرحمة عاطفة سمحاء ، وسحابة وطفاء ، تسمح بالغيث العميم ،
بلا قسر ولا ترغيم ، وتكسو المجذب والعديم ، ثياب النظرة والتعيم ، وهى
مزدوجة الخير ، مضاعفة الإحسان والبر ، مبارك فيها للواهب والموهوب ، مغمور
بنعمائها المثيب والمستثيب ، وهى أغزر ما تفيض من الأغزر فضلا ، وأوفر ما
تجئ من الأوفر قوة وحولا ، وهى فى الملوك أبهى رونقا من الثيجان ، وأسنى
جلالا من الصولجان ، فالتاج حلية الجبين ، والرحمة حلية الروح الأمين ، وذاك
موضعه الرعوس ، وتلك موطنها النفوس ، وأصلها فى سواد القلوب مغروس ،
وهى شيمة الرب المعبود ، وسجية الغفور الودود .

فيأبها اليهودى تعلم أننا إذا نفذنا عدالة القانون ، فكنا فى الإثم والخطيئة
واقعون ، ولغضب الله مستنزلون . فنحن جميعا نتوسل إليك أن تتوخى بعفوك
طيبات الخلائ ، وصالحات الأعمال .

شيلوك : « على رأسى وحدى عواقب خلالي وأعمالى . لا أطلب إلا تنفيذ
القانون . »

بورشيا : « أليس المدين قادرا على السداد ؟ » .

بأسانيو : « نعم وها أنا ذا مستبعد أن أدفع عشرة أضعاف المبلغ ، فإن عجزت
فاقطعوا رأسى وأوصالى . فإن أصر اليهودى بعد ذلك على عناده فذلك والله هزيمة
الحق على يد الحقد والضعيفة ، وإنى أتضرع إلى المحكمة أن تشد عن سنن القانون
مرة واحدة ، إذ لا بأس من التذرع بالخطأ اليسير إلى الصواب الكثير . »

بورشيا : « هذا لا يمكن أن يكون بحال ، إذ انتهاك حرمة القانون من المحال . »

بورشيا : « هذا لا يمكن أن يكون بحال ، إذ انتهك حرمة القانون من المحال »
شيلوك : « جزاك الله عن الشريعة والعدالة خيرا بما قد رأيت من صدعها ،
ورقت من فشقها ، وآسيت من جرحها . حقا لقد أخذ القوس باريها واستوى
على أريكة العدل دنياها . »

بورشيا : « أطلعني على العقد »

شيلوك : « ها هو ذا يا سيدى »

بورشيا : « هذا العقد قد فات مياعده ، وقد استحق اليهودى رطل لحم يقتلده
عما يلى قلب التاجر أنتونيو . رحماك يا شيلوك ، مزق العقد وخذ ثلاثة أمثال
مبلغك . »

شيلوك : « إني أستحلفك بحرمة الشريعة الغراء إلا ما نفذت نص القانون » .
أنتونيو : « إني أتضرع إلى المحكمة أن تنفذ القانون كما ينبغي »
بورشيا : « إذن فلتقد من صدرك لسكين اليهودى » .

شيلوك : « لا فض فوك يا عدل القضاة »

بورشيا : « هذا العقد شرعى فى نظر القانون وما نص عنه من غرامة نافذ
شرعا وقانونا .. »

شيلوك : « كلامك الحق ومقالك الصدق . إنك لا تتنطق عن الهوى »

بورشيا : « وبناء على ذلك فلتحسرن عن صدرك يا أنتونيو ، ههنا ميزان لزنة
اللحم ؟ »

شيلوك : « ها كم الميزان » .

بورشيا : « أحضر جراحا على نفقتك يا شيلوك لحبس نزيف الدم لكلا يتسبب
عنه وفاة المدين »

شيلوك : « أو قد نص العقد على ذلك ؟ »

بورشيا : « لم ينص ، ولكن ذلك يكون على سبيل الرأفة .. »

شيلوك : « على المحكمة أن تنفذ ما فى العقد لا تعدوه ولا تتجاوزوه »

بورشيا : « استعد أيها التاجر، ألدبك شىء تقوله ؟ »

لست على ما جرى بأسف إذ كان من أجلك . فاذكرني بخير عند أهلك ، وارثي لها بما أنا أهله ، وقل لها كنت خلكت الوفي ، وخذنك الصفي ، وحميمك الولي ، ولا تجزع لفراقى كما لست أجزع لحمام ألقاه قياما بالواجب » .

باسانيو : « إن لى زوجة أعز على من روحى ، ولكن روحى وزوجتى فداء لك ، وضحية أجود بها لإنقاذك من مخالف هذا الشيطان » .

بورشيا : « لبس ما جزيت زوجتك على حبها وودادها بتقديهما ضحية وقربانا . ولو كانت حاضرة لما سرها أن تسمع منك ذلك » .

جراشيانو : « ولى أيضا زوجة كنت أود لو تذهب إلى جوار ربها لتسخر من الملائكة من يهبط على ذلك الفاجر فيلين قلبه الأصم » .

نيرابسا : « لو كانت زوجتك حاضرة لأنار هذا الكلام منك عاصفة الشر بينكما »

بورشيا : « أنت تعلم يا أنتونيو أن لليهودى فى بدنك رطل لحم يسوغه القانون وتقضى به المحكمة »

شيلوك : « مرحى مرحى يا سيد القضاة وإمام العدالة .. »

بورشيا : « ولك يا شيلوك أن تأخذ هذا الرطل مما يلى قلبه . بذلك يقضى القانون وتحكم المحكمة » .

شيلوك : « مرحى مرحى يا أعلم العالمين وأفضل العالمين . تقدم للتنفيذ تقدم »
بورشيا : « تمهل قليلا يا شيلوك ، لقد فانتك مسألة فيها نظر ، هنا العقد لا يبيحك قطرة دم واحدة ، فخذ رطلك واعلم أنك إن أقرت قطرة واحدة من الدم النصرانى أصبحت ضياعك وأمراك بنص شريعة البلاد غنما طيبا حللا لحكومة فينسيا .. »

جراشيانو : « مرحى يا أعلم العالمين وسيد العالمين ، التفت يا شيلوك ، إنما أردد كلماتك .. »

شيلوك : « أذلك هو القانون ؟ » .

بورشيا : « أجل ، وسأريك من آيات العدالة فوق ما تطلب » .

- جراشيانو « مرحى مرحى يا شيلوك » .
- شيلوك « رضيت اقتراحك الأول ، أعطني ثلاثة أمثال المبلغ » .
- باسانيو « ها هو المال » .
- بورشيا : رويدا رويدا ، سينال اليهودى أقصى العدالة » .
- جراشيانو « مرحى يا إمام العدالة ! » .
- بورشيا : « استعد لأخذ رطلك من اللحم ، وإياك أن تهرق قطرة دم أو تأخذ أكثر أو أقل من الرطل ولو مثقال ذرة ، وإلا فالإعدام جزاؤك ومصادرة الحكومة كل أموالك . » .
- جراشيانو : « لقد أخذ القوس باريها ، واستوى على أريكة العمل دانيالها .
- بشراك يا شيلوك وهنيئا لك . لقد جشم عزرائيل على منافسك وأخذ الحمام عليك بالمرصد » .
- بورشيا : « ما بالك تتوقف أيها اليهودى ؟ اقتطع رطلك » .
- شيلوك : « أعطوني رأس المال وأطلقوا سبيل » .
- باسانيو : « ها هو ذا » .
- بورشيا : « كلا ، لن ينال والله سوى العدالة » .
- جراشيانو : « لقد جلس على كرسي القضاء دانيال ، فيا حبذا دانيال وقضاؤه .
- أشكرك يا شيلوك إذ علمتني الأمثال أضربها عند الحاجة » .
- بورشيا : « أيها اليهودى ، وإن للقانون عليك سلطانا آخر . ذلك لأنه إذا ثبت على أجنبي أن حاول مباشرة أو بغير مباشرة اغتيال حياة وطنى ، فلهنا الوطنى أن يأخذ نصف أموال الجاني ، وللحكومة روحه والنصف الباقي . فأما أموالك فقد ذهبت كما أبنت لك ، وأما روحك ففى يد الدوق ، إن شاء اقتضى ، وإن شاء عفا » .
- جراشيانو : « أما ولم يبق من مالك ما تشتري به مشنقتك ، فلم يبق إلا أن تشنق على نفقة الحكومة » .
- الدوق : « لأريك فرق مابين فعالنا وأفعالك ، قد وهبت لك روحك . أما

أموالك فقد قضى الأمر فيها ... نصفها لأنطونيو ، ونصفها للحكومة .
 شيلوك : وما عيشي بعد ثروتي ؟ وأى العيش يصلح بعد مالى ؟ خذوا روحي
 أيضا .

وهنا تبرع أنطونيو بنصيبه لشيلوك ، على شرط أن يحرر اليهودى عقدا بالتزول
 عنه بعد وفاته لابنته « باسيكا » ، وكان قد حرّمها ميراثه لتزوجها رغما منه بالفتى
 النصرانى « لورنزو » صديق أنطونيو .

فقبل اليهودى ذلك ، ثم استأذن فى الانصراف ، وإنه ليوشك أن يموت
 كمدا .

قال الدوق : « اذهب وسنبعث بالعقد وراءك لتمضيه ، وإذا بدا لك أن تتدم
 على ما فعلت وتمنصر ، تجاوزت لك الحكومة عن نصف أموالك » .
 ثم انقضت الجلسة .

وشكر الدوق المحامى الصغير ، وأثنى على ذكائه وعلمه ، ودعاه للغداء معه
 فأبى ، وكانت بورشيا تريد أن تسرع العودة إلى قصرها قبل إياب باسانيو ،
 فأسف الدوق واقترح على أنطونيو أن يحسن جزاء المحامى الصغير إذ كان مدينا
 إليه بحياته .

ولما مضى الدوق والقضاة ، أقبل باسانيو على بورشيا فقال لها « لقد نجيتنا
 اليوم من الهلاك أيها العالم التحرير ، فأيسر ما نجزيك به على حسن صنعك الثلاثة
 الآلاف التى كنا سنعطىها اليهودى . فخذها بورك لك فيها » .

بورشيا : « لقد أصاب جزاءه ، من أصاب شقاءه ، ولقد شفيت نفسى بإنقاذ
 أنطونيو ، فكان ذلك أوفر جزاء وأوفاه ، وسلام عليكما » .

باسانيو : سيدى الأجل . لا يسعنى إلا إلزامك أخذ شيء يكون تذكارا منا
 على جميلك ، فلا ترفض .

بورشيا : « أعطنى هذا الخاتم . لا تقبض يدك . لا آخذ سواه ، وما أراك
 باخلا على به »

باسانيو : « هذا الخاتم يا سيدى ؟ واخجلاله ! إنه لأحسن قيمة من أن يهدى

لثلك »

بورشيا : « وأنا لا أقبل غيره » .

باسانيو : « إن لهذا الخاتم لثأنا . اذهب بنا إلى صاغة فينسنا فانتق ثمت أغلى خاتم وانظر هل نبخل به عليك . أما هذا فأعرض عنه واقبل فيه عذرى »
بورشيا : « سيدى ، ما أجود لسانك بالوعود ، وما أبخل يدك بالموعود » .
باسانيو : « هذا الخاتم هدية زوجتى ، وقد عاهدتها على أن لا أفرط فيه لاهبة ولا منحة » .

بورشيا « هذه علة البخيل عن الكرم » .

أنطونيو : « أعطه الخاتم يا صديقى وكفى بمعروفه إلينا عذرا تقدمه لزوجتك »
فاستسلم للقضاء باسانيو ، وأعطى بورشيا الخاتم . وكذلك احتالت نيريسا حتى أخذت خاتمها من أصبع جراشيانو .

ثم انطلقت الآستان إلى « بلمون » فدخلتا بستان القصر وليثتا به تنتظران زوجيهما . وما هى إلا سويعة حتى دخل عليهما باسانيو وجراشيانو وأنطونيو ، فقدم باسانيو صديقه إلى زوجته بورشيا . وما كادت تنتهى عبارات التحية والترحاب والتهانى ، حتى رؤيت نيريسا وزوجها يتشاجران فى ناحية من البستان .
قالت بورشيا : « أشجار وعراك ولما تمض لحظة ؟ ماذا جرى ؟ » .

جراشيانو : « من جراء حلقة من الذهب ، خاتم ضئيل القيمة » .
نيريسا : « مالك ولقيمته ؟ لقد حلفت لى لن يفارق أصبعك حتى تموت . فلن أعطيه ؟ »

جراشيانو : « والله ما أخذه إلا صبى المحامى ، وهو غلام فيه منك ملامح ، وقد ألح على فيه حتى أخرجلى »

بورشيا : « أنت الملولم على كل حال . لقد أعطيت زوجى خاتما ، وما كان ليهبه ولو أعطى فيه الأرض وما عليها » .

عندئذ قال باسانيو يحدث نفسه « من لى بأن أقطع ذراعى فأقول إنى فقدت الخاتم معه ، وأنا أدافع عن حياتى فى معركة دموية ؟ »

قال جراشيانو : « إن سيدى باسانيو أعطى خاتمك للمحامى نفسه » .
بورشيا : « أى خاتم أهديت يا سيدى ؟ أرجو أن لا يكون خاتمى » .
باسانيو : « خاتمك ياسيدتى ، ولكن على الكره والرغم منى . لقد غلبت فيه على أمرى » .
بورشيا : « لقد أقفر من الوفاء قلبك ، ولعمر الله لن أزوج منك حتى ترينى خاتمى » .

نيريسا : « وأنا أيضا لن أزف عليك حتى ترينى خاتمى »
باسانيو : « ملكيتى الحسنة ! أما والله لو علمت لمن أهديت الخاتم ، ومن أجل من أهديت الخاتم ، وبأى حسرة وحرقة أهديت الخاتم ، حين لم يك يقبل شىء سوى الخاتم ، إذن لعذرتنى واغفرت زلتى »
أنطونيو : « ولى » أنا أصل هذا التفار ، وسبب ذلك الشجار »
بورشيا : « لا بأس عليك يا سيدى ولا حرج »
باسانيو : « ساعينى هذه المرة ، وأعاهدك أن لا أعود لمثلها ما حيت »
أنطونيو : « كما خاطرت بحياتى قبل اليوم ، أخاطر بها الآن فى سبيل ضمانته لديك »

بورشيا « قبلت ضمانتك . أعطه هذا الخاتم (وانتزعت خاتمها من خنصرها)
ومره أن يكون به أشد احتفاظا »

باسانيو : « يعين الله إنه عين الخاتم الذى أهديته المحامى »

بورشيا : « لقد أخذته منه ، فمعذرة يا باسانيو »

نيريسا : « ومعذرة يا جراشيانو ، فلقد أخذت هذا الخاتم من صبي المحامى »
بورشيا : « أراكم أجمعين فى دهشة وحيرة . هاك رسالة - تقرؤها فى فراغك - من الأستاذ ملاريو ، وستجد بها أن بورشيا كانت هى نفس المحامى الصغير ، ونيريسا كاتبه ، وستشهد خدام القصر أنى برحته على إثره ولم أعد إليه إلا قبل منجيثك الآن بساعة . أما أنت يا سيدى أنطونيو فعلى الرحب والسعة . لقد حللت أهلا ، ولقيت سهلا ، وعندى لك بعد نبأ عظيم . ففى هذه الرسالة

تجدد بها أن ثلاثاً من سفنك قد وصلت الميناء سالمة غانمة » .
أنطونيو : « لسانى يعجز عن شكرك » .
باسانيو : « أكنت المحامى ثم لم أعرفك ؟ » .
جراشيانو : « وكنت أنت الكاتب ؟ » .
أنطونيو : « لقد وهبته الحياة والعيش معه ، فهذا نبأ صريح أن سفنى قد وصلت » .
بورشيا لقد لاحظت تباشير الصباح ولم تستوفوا الحديث ، فادخلوا بنا نستريح ،
وسأفضى عليكم بكل ما كان » .
جراشيانو : « هلموا بنا ، لست ما حييت لاقيا من صتوف العناء ما هو أشق
وأصعب من حمل خواتم النساء » .

ريانة الموت

لهفى عليكما أيها العاشقان ، تيتان من الشوق في تعب ، وتصبحان من الوحدة في نصب ، كلما بزغت الشمس زاد الشوق اضطرابا ، وكلما غربت تضاعف احتلاما ، فكان شخصها البديع مائلا لعينيه أينما كان ، وأذنه لا تكاد تخلو لحظة من صدى صوتها الرنان .

وكانت هي ثمة سكرى من حيا هواه ، تشرب من دمعها السجم وتنشق عبير ذكراه ، وإذا حركت أوتارها فبأسمه تعزف ، وإذا تناولت منسجها فبأسمه تفسد التطريز وتتلف .

وإذا طرقت عليه الباب علم من الطارقة قبل أن يسلمها الباب لناظره الجائع الظمان ، وهي من خلال نافذتها تراه من أقصى مكان ، وكان يسهر الليل الطويل في أشجان وأتراح انتظار أن يسمع خطوات قدمها الوثابة في الصباح .

على هذه الحال الأليمة تصرمت أشهر الربيع ، ثم طلع الصيف بنضرتة على نضرة جمالها ذابلة ، وتجلت بهجته على بهجة حسنهما حائلة ، وجعل كل منهما يسر حديث عشقه إلى النجمة الساهرة ، والنسمة الخاطرة .

وأقبل الفتى على وسادة القلق يناجيه بلسان الدمة الهامية ، والزفرة الحامية يقول « لا طلعت على شمس الغد إذا أنا لم أسمع قبل مطلعها ، نغمة الغرام من شفتها اللعساء ، فتالله لن يوح الشرق بأسرار الضياء حتى أكون قد بحث لحبيبتى ، بأسرار لوعتى »

وعلى ذلك استمر حتى أبصر الفتى « لورنزو » و « جنة » إيزابلا « قد علاها صفرة البهار مكان حمرة الشقيق ، وانطلقا من لحظها الفتان لألاء الماس ومن شفتها اللمياء جمرة العقيق ، وعراها هزال كهزال الأم الساهرة على رضيعها تسكن آلامه ، وتخفف سقامه .

وناجى الفتى نفسه :

« ما أسوأ حالها ، وما أسرع هزالها ، فلئن كانت الوجوه عناوين القلوب - كما يزعمون - فلا مراء أن وجه حبيبتى لينم عن أعظم الأنبياء ، وأعضل الأدواء ،

فلو أتيح لى أن أشرب دمعها ، واكشف غمتها ، لخف ما بى وقل مصابى .

أصر « لورنزو » ذات صباح على مكاشفة الفتاة ، فلبث طول يومه خفاق الأحشاء قلق الجوانح يسأل الله حسن المعونة على النطق والإفصاح ، ولكن لسانه ما يرح فى أغلال الهيبة مأسورا ، وما انفك قلبه فى قبضة الوجد والطرب مقهورا ، وفطنت الفتاة إلى سره ففاحتته القول ونار الغرام فى خدنها تلتهب التهابا ، ولكنها لم تزد على أن قالت « لورنزو » واعتقل لسانها ، غير أن الفتى قرأ صحيفة سرها فى هذه الكلمة المفردة - فى نبرات لفظها ، ولحات لحظها .

فقال لها :

« إيزابلا ! ماذا على عليك أن أبثك أحزاني وأشجاني ، فإن كنت تؤمنين فى هذه الدنيا بشيء فأمنى بحبى وصباتى . وبأنى أشفيت من وجدى بك على الردى . معذرة ياشقة النفس ، وتوأمة الروح ، أنا لا أجروء على مس يدك الطاهرة خشية أن تؤذيها أنامل ، ولا أجروء على النظر فى عينيك خشية أن تنكر لحاظك لحاظى ، ولكنى لا أستطيع البقاء ساعة أخرى ما لم أجهر لك بسريرة صباتى » وهنا اجترأت شفتاه فامتزجتا بشفتيها وتسلسل بين الشفاه الملتهبة حديث الهوى الصامت المسول ، وتحققت للعاشقين أمنية القائل :

عندى رسائل شوق لست أذكرها لولا الرقيب لقد بلغتها فاك
لقد ظفر العاشقان بلذة العمر ، ومتمعة الدهر واخضرت بينهما السعادة وأورقت ، غناء حالية ، ظللها ضافية ، قطوفها دانية .

كذلك افترق العاشقان وكأنهما لفرط السرور يطيران فى الهواء ، وكأنهما زهرتان توأمتان دب النسيم بينهما ففرقهما ، ولكن لوشك تعاطف والتام ، وتآلف وانضمام ، فما هى إلا هتية حتى تلتفان فتمتزجان ، ثم تتبادلان الأنفاس العبة الحرار ، وتمتزان مدامع الندى الغزار .

ولما أسفر الصبح التقيا بزاوية فى ألفاف الرياض من قبل أن ترشف شمس
الضحى ريق الغواذى من ثغور الأقاح . وما زال ذلك دأبهما وديدنهما يلتقيان
بكثرة وأصيلا فى سرادق وشاه الورد والياسمين ، مستور عن العيون ، محبوب
من الظنون ، فياليت ذلك كان عليهما سرمدنا .

يا شقى الله الغضا وأما على طيب عيش بالغضا لو كان داما
الحب كالنور بأبى إلا الذبوع ، وكالطيب لا يد له أن يمشوع .

ومن ثم بدا لأخوى الفتاة ما كان يغمر عاشقين من لجة ذلك الهوى الزخار ،
وكان أخوها موسرين صاحبي ضياع وتجارة وعقار ، فتصادتا فى ذلك الشأن ،
فاتفقا على أنه لا بد أن يكون لأختهما علاقة غرامية بالفتى « لورنزو » وكان كاتبا
عندهما ، وشق عليهما أن يكون خادما لهما لأختهما عشيقا ، فعزما على اغتيال
الفتى فاستدرجاه إلى أعماق الغابات وهنالك ذبحاه فدفناه .

ثم عادا وأخيرا إيزابلا أن « لورنزو » قد رحل إلى بلد قصى فى مهمة لهما ،
وأنتهما أثره بهذه الرحلة لفرط تفتنهما به واعتمادهما عليه .

مسكنة إيزابلا أرسلت العبرات ما استطعت والزفرات ، والبسى الحداد ،
والزمى السهاد ، وحالفت الشقاء ، واطرحت الرجاء ، فلن تبصرى لورنزو ما أظلت
الأرض السماء .

لبثت إيزابلا الشهور الطوال تكابد من برجاء الوجد والكمد ما تكابد ،
وأغفت ذات ليلة فرأت فيما يرى النائم أن « لورنزو » أمامها ييكى وقد شوه
القبر جماله ، وأطفأ من وضئ عياه رونقه وصقاله ، وسلب من صوته الرخيم
مزهرا وعودا ، وشق فى خده الأسيل لمسارب الدمع أخلدودا ، ورتنا الخيال إلى
إيزابلا بعين إنسانها شرق ، وفى لجة العبرات غرق ، ثم أخذ يسرد عليها حديث
مصرعه ، ويحدد لها مكان مثواه ومضجعه ، إلى أن قال : « ثم اعلمى يا حبيبتى
أن على قبرى ترف الأزهار والنوار ، ويطرخ الدوح والأشجار ، وفوقه حجر من
المرمر المسنون ، وقد مدت عليه الطبيعة سرادقا من الكرم والزيتون ، فهلمى يا
إيزابلا فاسكبى على ثراه دمة تبرد عظامى ، وتروى آوامى ، وتندى على كبدى ،
وتضىء ظلمات لحدى .

« ما أنا اليوم سوى خيال يا إيزابلا ، ناء عن الأحياء ، منفرد من الأقرباء
والبعداء ، منبوذا على أصراف حاشية الحياة ، أقيم الصلاة الأبدية السرمدية ، على
صدى صوت الإنسانية ، ذلك المنحدر إلى من متالع سيلها الضجاج ، وعباب
بجرها العجاج ، وما ناقوس جنازتي إلا طنين التحل في لفائف الأشجار ، وهتاف
الورق في الأصائل والأسحار ، وهذه الأصوات الدنيوية لا تزال تزداد وحشة
وغرابة في أذني ، وتجاوفا ونبوا عن روحي وذهنى ، كابتعادك أنت عنى فى عالم
الأحياء .

« إنى أعلم ما كان ، وما هو كائن الآن ، ولو أن شبحا فى عالم الأرواح
يمكن أن يصيبه الجنون لجنتت من مظالم الإنسان ، ومظالم الزمان ، وإنى وإن
كنت نسيت طعم الحياة الدنيوية لأشعر الآن بلذة فى قربك ، وأرى صفرة
وجهك الحزين تضىء غياهب جفرتى ، وتدفىء أشلاء رمتى ، كأن ملائكة
الفردوس تزف إلى عروسا من الحور ، وملكا من النور ، إن صفرة محياك تنعشنى ،
وحلاوة جمالك تنبث فى نفسى وتمتزج بأجزاء روحي ، حتى لقد أحس دبيب
الهوى ومسرى الغرام فى نواحي كيانى . وداعا أيتها الحبيبة ! »

ثم أملس الخيال ، وهبت إيزابلا من منامها مذعورة ، وقالت :

« ويلي ثم ويلي ، ما هكذا ظننت ، ألا إن فى الأمر لجريمة ، لقد سفكت
يلدا أخوى أركمى دم وأكرمه . أيها الروح الطاهر لقد نبهت غفلتى ، وأضأت
دجيتى ، لأزورك فأقبلن عينيك وأحييك صباح مساء ، ولأجعلن مراك لنظرى
صبوحا وغبوقا »

ولما مال ميزان النهار خرجت إيزابلا وخادمتها العجوز فى خفية فسارتا حتى
بلغتا الغاية وقد سأل ذهب الأصيل ففد خلقتها وشرعت إيزابلا تجيل بصرها لتستين
معالم القبر ، كما وصفت لها فى الرؤيا ، ولم تلبث أن اهتدت إليه ، فأقبلت على
ثراه تبهش وتحفر ، حتى أزال سقف الضريح ، وإذا فى قرارته جثة هامدة فوققت
مسلوحة الحركة شاخصة البصر ، مطلة على ذلك المشهد المرهوب كأنها ربحانة
نبثت على حافة الضريح .

تراها هاجت إذ ذاك وماجت ، وثارت وفارت ، وأرغت وأزبدت ؟ كلا لقد نزلت عليها في تلك اللحظة سكينه الحزن وصمته .

وهنا اقتطفت إيزابلا من حديقة الموت تلك الزهرة الذابلة - رأس حبيها ، ولم تجد ذلك الرأس مشوها ولا بشعا ، ولكنه حسنا جميلا في ظلال الموت كما كان في أشعة الحياة .

حملت إيزابلا هامة حبيها إلى غرفتها ثم أقبلت عليها ، ترجل شعرها الأشعث بمشط من الذهب ، وتبسط ما التوى من أهدابها حول مقرتي عينيها ، وتنضح بشآبيب دمعها التراب القبر اللاصق بها ، وكذلك قضت الساعات العديدة المديدة تمشط وتنهد ، وتبدأ البكاء وتجدد ، ثم جاءت بمندبل من حرير الصين ففرقت فيه عبيرا ثم لفت في طياته الهامة المحبوبة ، وجاءت بآنية من أواني الزهر مملوءة بطينة حلوة طيبة اريجة فدفتها فيها وغطتها بتراب شابته بالمسك والعنبر ، وبذرت فوقها بذور ريحان ، ووكلت ربيها وسقيها إلى جداول دمعها الفياضة .

عكفت إيزابلا ليل نهار على ريحانتها تسقيها غيث المدامع المدرار على نهل ، تمطرها منه الولي بعد الوسمي ، والعهاد بعد العهاد ، ونسيت في سبيل ذلك الدنيا وأحوالها ، والحياة وأعمالها - نسيت الأرض والسماء ، والشمس والقمر والنجوم ، والسهل والجبل ، والنهر والغدير ، والشمال والجنوب ، والصبا والدبور ، فأصبحت لا تدري متى شرقت الشمس ولا متى غربت ، وهل طلع النجم أم أفل ، وإنما عكفت على ريحانتها الحلوة تمطرها دموعها الغزار ، وتروحها بأنفاسها الحار ، لا عمل لها سوى ذلك .

وكذلك شبت الريحانة واخضرت ، ونفح طيبتها وفاح لها نسيم أذكى وأعتق من نسمات نظائرها في البساتين والخمائل ، ولا عجب وليس لها من غذاء سوى لوعة القلب الحزين ، وليست مادة حياتها إلا من ذلك الرأس الدفين .

كذلك برزت من حجابها تلك الذخيرة المدفونة ، والجوهر المكنونة ، فبدت للعيان خضراء ملتفة فياحة الشدا .

يا طوائف الأحزان وأسراب الهموم والأشجان ! قفى برهة على هذا المشهد
الأكيم ، فتوحى واندى ، وصبى الدموع واسكبي ، وأطرقى أسفا ، وذوبى حسرة
ولها ، ويا نغمات الموسيقى الحزين اسجعى أسى وكمدا ، واصدحى لوعة
ووجدا ، ويا صدى عالم الأرواح ثر من مكانك الخفية فأرسل زفرات العناء ،
وأنفاس الصعداء ، ويا ساكنى القبور ! ارفعوا الرؤوس وتبسموا استشعارا ، فستزل
بينكم عما قريب إيزابلا ، إنها لتذبل كالزهرة تحت الضرب ، وتذوب كالشمعة
فى اللهب .

شاهد الأخوان فرط حزنها وطول بكائها ، لا يجف لها جفن ولا ترقأ لها
عبرة ، وتعجبا من ذلها وانكسارها ، وكيف قد ظلت تبتد فى عواطف البث
والشجن كنوز جمالها ، وتضحى على مذبج الوجد والكمد بفئاس ملاحظتها
وحسنها .

وأعجب من ذلك اغتاؤها على الريحانة ، كاسفة البال ، سيفة الحال ، واخضرار
تلك الريحانة ، ورفيفها ونضرتها ، كأنما تمسها عصا ساحر ، أو يتولى نقر من
الجن سقيها .

وقال أحدهما لأخيه « إن لهذه الريحانة لسانا » .

فأخذنا يرصدان غفلة عينها عن ريحانتها ، ليقفا على أمرها وقصتها ، وأطالا
الرقبة ولكن بلا طائل ، إذ كانت الفتاة أبدا عليها عاكفة ، وأوعية دموعها لا تزال
من فوقها واكفة ، فإذا نهضت عنها إلى أهم حاجاتها لم تلبث أن تعود إليها
بأسرع من عودة الحمامة إلى وكرها ، ثم تلزمها كما تلزم الدجاجة بيضتها ،
وتبرى عليها بكاء صامتا ، تسرق الدمع فى جيبيها وفى فروج شعرها ، ولكنهما
استطاعا أخيرا أن يسرقا الريحانة ويفحصاها فى مكان خفى ، وكذلك اطلعا على
الدفينة البشعة الشنيعة ، وكان قد عبث بها البلى والفساد وطمس معالمها العفاء
والدثور ، ولكنهما تبينا على الرغم من كل ذلك أنها رأس لورنزو .

فلما وقع فى أيديهما أثر جريمتهم سحقا سحقا ، وذرياه فى الرياح حتى
انمحي كل أثر منه من هذه الدنيا .

ولقد غادرا المدينة (فلورنسا) فى أسرع من لمح البصر ، لقد فرا ملوثين
بدم الجريمة .

* * *

ظلت الفتاة بعد فقدان ريجانتها حيرى مدلهة ، حسرى موهلة ، تسائل عن
الريجانة كل غاد ورائح ، ويا طالما انتصحت عليها برنة وحنين ، وزفرة وأنين ،
ويا طالما ساءلت عنها الجوالاة والرحالة ، هل سمع بها فى بعض تجواله وتطوافه ،
أو بصر بها فى مرتبعه أو مصطافه ، وكم صاحت والعبرات تخنقها :
« والهفا أن لا أزال أفتش عن ريجانتى فلا ألقاها » .

ومرضت الفتاة وضنت حتى سالت نفسها وفاضت روحها ، فلم يبق فى
« فلورنسا » مهجة إلا ذابت شجى ، ولا مقلة إلا أسبلت أسى ، وما زال الناس
حتى اليوم يتغنون فى تلك المدينة بلحن يتصل بهذه القصة ، وما هو إلا تلك
الكلمة التى كانت ترددها الفتاة إذ تسائل الناس عن ريجانتها ، والتى ذكرناها آنفا
وهى :

« والهفا أن لا أزال أفتش عن ريجانتى فلا ألقاها » .

* * *

الفرش العجيب

خرجت وصديقا لى ذات ليلة أتجول فى أنحاء باريز فساقنا القلبر إلى بيت من بيوت القمار فدخلناه ، وصعدنا سلمه فأفضى بنا إلى غرفة اللعب وكانت تجثم على أرجائها سكتة أرهب من سكتة الموت ، وكأن اللاعبين أشباح أو تماثيل ، فكان مشهدا مرهوبا يملأ الصدر وحشة وحزنا ، فلم أجد لى مهربا مما عرانى من الضيق والهلم إلا الانضمام إلى اللاعبين فدنوت من المائدة وشرعت ألعب ..

وأقبل على الحظ فربحت وربحت ثم ربحت . أجل ربحت بسرعة أدهشت طائفة اللاعبين فازدحموا من حول وجعلوا يرمقون مكسبى وأرباحى بأعين منهومة جائعة - ثم أخذوا يتهايمسون « إن هذا الفتى الإنكليزى سيذهب بمال البنك كله » ..

لقد بهرنى وحير عقلى ما أصبته من ذلك النجاح ، ثم مالبت أن أسكرنى فظلمت اترغ كمن خالطت هامته المدام وصدمته حميا الكاس .

وجعل اللاعبون ينسحبون على أثر إفلاسهم واحدا بعد واحد ، وبلغ القلق والاضطراب من النفوس أقصاه ، وكلما تجول الذهب المركوم إلى جانبي سمعت الصرخات واللعنات تنطلق من ألسنة الجماعة بمختلف اللغات (لقد كانوا أخلاطا من كل أمة وملة) ..

وهنا أقبل على زميلى فنصح إلى أن أغادر المكان قانعا بما ربحت ، وألح على بالنصيحة مبدئا ومعيدا لم يألئى نذيرا ولا تحذيرا . ولما وجدنى عنه فى صمم تركنى وشأنى ومضى .

وبعد ذهابه بقليل سمعت صوتا أجش ينادينى من خلفى ..

« اسمح لى يا سيدى - اسمح لى أن أرد إليك ليرتين قد سقطتا منك . إن حظك لسعيد يا سيدى ، إن حظك مدهش ، هائل ! .. واقسم لك بشرفى العسكرى

ما رأيت قط فى عديد ما شاهدت من المقامرات حظا كهذا .

فامض فى سبيلك لا تهب شيئا ولا تبلى ..

فالتفت خلفى فإذا رجل طويل عليه كساء عسكرى قديم وهو يهز رأسه
ويبتسم إلى ابتسامة ارتياح وإعجاب ..

ثم قدم إلى تشيقة فأخذتها شاكرًا وأقسمت أنه لأكرم من مشى على ساق
.. وأنه خير بقايا الجيش الأفخم (جيش نابليون بونابرت) ..

وصاح بى ذلك الجندى العتيق « امض فى شأوك لا تحفل شيئا ولا تبلى » ..
ولقد مضيت فى شأوى وتوالت على الانتصارات بسرعة البرق الخاطف ولم
تك إلا هنيهة حتى صاح ..

« أيها السادة إن البنك قد أفلس » ..

ونظرت فإذا جميع ما فى ذلك من الورق والذهب كتيب متراكم تحت يدى
.. وإذا كل رأس مال ذلك البيت على وشك أن يتصب فى جيوبى ! ..

وقال لى الجندى القديم وأنا أغمس يدى فى كتيب الذهب « صر الذهب
فى منديلك يا سيدى ، فلم يخلق الله حتى الآن جيبا يسع كل هذا . أجل !
أجل ! .. اكتسحها جميعا ! .. هكذا هكذا ! .. اكتسها كلها ذهبًا وورقا ،
والآن اعقد عليها عقدتين مزدوجتين ولا تخف بعد ذلك شيئا ، ما أسعد حظك ،
جس الصرة يا سيدى جسها ، صلبة صلبة صماء كالقنبلة ! .. حبذا ونحن مع
الإمبراطور فى موقعة « استرلتز » لو أنهم كانوا يرموننا بقتابل من أمثال هذه
الصرة ، والآن يا سيدى لا بد أن تشرب معى زجاجة شامبانيا ولنحسون منها
قدحا فى نخب آلهة الحظ ! .. »

فصحت قائلا « بكل ارتياح يا سيدى ، لأشربن معك من نبيذ الشامبانيا ،
حيا الله الجندى الفرنسى وسقا عهد نابليون وجنوده ولتبقى آلهة الحظ ! .. »

فصاح الجندى العتيق قائلا :

« فليحى الفتى الإنجليزي الماجد الهمام . والباسل المقدم . الذى يتدفق فى
عروته الدم الفرنسى المتوقد . أدر الكأس يا غلام ، زجاجة أخرى ونصف أقة

من الحلوى ، فلتحى المدام »

فقلت « كلا أيها الجندى القديم ! .. على حسابك الأولى وعلى الثانية ، فلتشرب فى نخب الجيش الفرنسى وفى نخب نابليون الأعظم وفى نخب الحاضرين أجمعين وفى نخب الرجال الأحرار وفى نخب النساء وفى نخب سكان الأرض جميعا ! .. »

ولما فرغت الزجاجاة الثانية أحسست كأنما كنت أشرب نارا سائلة وكأن رأسى يلتهب التهابا ..

فصحت قائلا : « أيها الجندى القديم » إنى أحترق احتراقا فكيف حالك أنت ؟ .. لقد أشعلت فى كبدى ضراما ! .. فلنطفئ هذا الضرام بثالته ! .. »
فصاح الجندى « كلا ، وحسبك ما احتسيت . إنما أنت فى حاجة إلى القهوة ، قدحا من القهوة ، قدحا من القهوة » ثم جرى إلى الفرقة المجاورة .
وكان لفظة « القهوة » حين خرجت من فم الرجل كان لها تأثير كالسحر فى نفوس الحاضرين طرا ، فما هو إلا فاه بها حتى نهضوا جميعا وتسلموا من المكان واحدا إثر واحد ..

ولما عاد الجندى العتيق وجلس بإزائى لم يكن بالمكان سوانا . وقد خيم السكون على أرجائه .

وقال لى الجندى فى رزانة ووقار « أنصت إلى يا سيدى ، لقد ذهبت إلى ربة البيت فسألتها أن تصنع لنا إبريقا من أجود القهوة وأقواها . واعتقادت أيها السيد أنه لا بد لك أن تشرب منها قدحا قبل ذهابك لكسر من حدة سكرتك ، وتهضم من سورة حمياها ، فإنه ليس من الحزم أن تخرج سكران ومعلك كل هذا الذهب . فقد أخاف أن يكمن لك فى ثنايا الطريق بعض من قد شاهد غنيمتك ممن كانوا ههنا آنفا ، فيقع من الشر ما لا تحمد عقباه . وبعد فإنى أنصح إليك أن ترسل فى استحضر مركبة ، ومتى شعرت بشيء من الإفاقة فاركب وأغلق النوافذ من حولك ، ومر السائق أن يسلك بك الشوارع الأهلة المستتيرة . فاتبع نصيحتى هذه تسلم ويسلم لك ذهبك ، وعند الصباح يحمد القوم السرى » ..

ومع خاتمة هذا الحديث جاءت القهوة ، وقدم إلى صاحبى قدحا وكنت

ظمان فالتهمته دفعة واحدة - وعلى أثر ذلك عراني دوار شديد وأحسست حميا
الراح تزداد في رأسي سطوة وطغيانا ، وكأن الغرفة تدور بي دورانا ، وكأن
الجندي يعلو ويهبط في عيني أشبه شيء بذراع الوابور ، وأحسست في أذني
أزيزا أوشك أن يصمني . وعراني أشد ما يكون من الارتباك والذهول والخيرة
والوهن ، والخور والإعياء والتبلد والبله ، فقممت من مقعدي في بطء وثقل
واتكأت على المائدة بكلتا ذراعي لأحفظ ميزان قامتي ، ثم قلت في لجلجلة « إني
في غاية الضعف والوهن لا أستطيع حراكا ، ولا أدري بأية قوة أذهب إلى داري » ..
فأجابني الجندي « سيدي العزيز » وكأن صوته كان يعلو أيضا ويهبط « إن
من الحماسة أن تحاول الذهاب إلى دارك وأنت على هذه الحال ، ولئن فعلت لتسلبن
مالك وروحك . سأبيت هنا الليلة ، وما ضرك لو بت أنت أيضا ، فاتخذ لك
مضجعا ههنا وبدد بالنوم العتيق غشاوة هذه السكره ، وارحل بمالك من ههنا
غدا في رابعة النهار » ..

فلم يسعني والحالة هذه إلا قبول نصيحة الرجل ، فأمسكت بذراعه وحمليت
الصرة في يدي الأخرى ، ثم سرنا في بضعة مسالك ، وصعدنا سلما أفضى بنا
إلى الحجرة التي كانت قد أعدت لراحتي تلك الليلة ، ثم ودعني الجندي ووعدني
الإفطار معي غدا ثم تركني ومضى ..

فهرعت إلى إبريق من الماء فشربت منه وأفرغت بقيته على رأسي ووجهي ،
ثم جلست على مقعد وحاولت تسكين جأشي ، وما لبثت أن شعرت بتحسين
في حالتي ، وأذهب الله عني الصداع وأثاب على عقلي وصوابي ، وألقى على
كبدى روحا وريحانا أبرد عظامي ، وكان أول ما خطر ببالي ما استهدفت له من
الخطر الجسيم بميتي في دار مقامرة . وأخطر من ذلك وأهول هو محاولتي
الفرار من تلك الدار في مثل تلك الساعة ، فلم أجد من حيلة سوى إغلاق الباب
وتحصينه بالمائدة والكراسي ، ثم قضاء تلك الليلة المشؤومة على تمام الحذر والتحفز
لكل طارئ .

وشرعت في تنفيذ هذه الخطة فأرصدت الباب وحصنته ، وبمحت تحت
الفراش وفي الخزانة وسددت النافذة ، ثم نظوت ثيابي واستلقيت على الفراش

وجعلت صرة الذهب تحت الوسادة ..

وهنا ألفتيتى لا أستطيع النوم بل لا أستطيع إطباق أجناسى ، ووجدتني على أقصى نهاية من اليقظة وتنبه الحواس وتوتر الأعصاب - وجعلت أتلقى وأتقلب وأقذف بذرعى من فوق اللحاف تارة وأخبطها تحته تارة أخرى ، أتمطى وأتمدد أنا وأتقبض وأتجمع كالقنفذ آخر ، ثم ألجأ إلى القعود بعد كل ذلك .. وهكذا جربت كل رقدة وجلسة بلا أدنى ثمرة ولا جدوى ، فتنهدت من أعماق قلبى إذ تبين لى أنى سأحرم النعاس والراحة طوال هذه الليلة ..

فرفعت نفسى قليلا واتكأت على مرفقى وجعلت أطوف بعينى فى أرجاء الغرفة ، وكانت تنيرها أشعة القمر الوضاءة المنبثة من زجاج النافذة - لأنظر هل ثمت من صور أو زخارف أتلهى بها وأتسلى ، وهنا تذكرت الكتاب الممتع تأليف « لى مايستر » المسمى « سياحة حول غرفتى » الذى ضمنه ذلك الكاتب المقتدر أبدع الأفكار والخواطر عما تحويه غرفته من أثاث الأشياء ، فعولت على أن أحتذى مثال ذلك الكاتب المبدع وأنسج على منواله ، فأخذت أعدد ما بالغرفة من الأدوات وأحصيه فحررت بها كشفا فى ذهنى ولكنى لم أزد على ذلك ، وقد أعوزنى - وأنا فى تلك الكربة الكاربة والهم الناصب - خيال ذلك الكاتب البديع وقرينته الحافلة الفياضة التى استطاعت أن تفجر من أثاث الأشياء كالكرسى والإبريق والشمعة أغزر ينابيع الشعر والحكمة ..

وفيما أنا أتأمل أمتعة المكان وأثاثه أخذت عيني صورة على الحائط وكانت تمثل رجلا على رأسه قلنسوة عالية محلاة القمة بطائفة من الريش ، رجلا أسمر اللون كربه الملاح شميم المحيا تلوح على وجهه أمارات الفتك والإجرام يظل عينيه بإحدى يديه ويسمو ببصره صعبا - لعله كان ينظر إلى مشنقة قد أعدت لإعدامه - وعلى كل حال فقد كانت هيئته تدل على أنه يستحق ذلك ..

فعددت الريش - خمس ريشات - اثنتين خضراوين وثلاثا بيضاء .

وهنا شت ذهنى وهام فى أودية الذكري ، إذ أذكرنى ضوء القمر المستفيض فى الغرفة بليلة قمرأ قضيتها بإنكلترا عائدا من بعض متنزهاتها فى طريق أنيق تحفه الغياض والرياض ..

وشملة الظلماء مكفورة تحت رداء القمر المذهب

لقد تذكرت تفاصيل تلك السياحة ومفرداتها كافة لم أعادر صغيرة ولا كبيرة مع طول العهد وقلة الاهتمام بها ، وإنها لم تمر بخاطري منذ أعوام عديدة . وقد أعلم يقيناً أنى لو كنت تعمدت أن أتذكرها لما ذكرت منها قليلاً ولا كثيراً . ألا فرعى الله الذاكرة ، إنها لأوضح دليل على خلود الروح ومصدرها الإلهى ! .. ها أنا ذا فى دار مربية فى بلدة غريبة وعلى شر حال من القلق والرعب والهول والخطر ، مما هو جدير أن يشل حركة الذاكرة ، وعلى الرغم من كل ذلك ترانى أتذكر - دون إرادتى - حوادث وأحوال ووقائع ، ومناظر وأشخاص وأماكن ، ومحاورات ومناقشات من كل صنف ولون ، مما كنت أحسبه قد طاح فى مهاوى النسيان آخر الأبد فلا أستطيع إدراكه ، وأنا أهدأ ما أكون بالاً وأصفى ذهنى . وما الذى أحدث كل هذا الأثر العظيم وسبب كل هذه النتيجة الهائلة ؟ .. لاشئ سوى شعاع من ضوء القمر انبعث من زجاج النافذة ..

وبينما لا أزال أتذكر تلك السياحة وما أصبنا من ضروب الملذات أثناء العودة إلى منازلنا - وأتذكر آتسه حسناء كانت معنا - مولعة بالشعر ، وقد أثبت إلا أن تتمثل أبيات الشاعر « بيرون » الواصفة ضوء القمر من قصيدته الطائرة الصيت « شيلد هارولد » - وذلك لأن الليلة كانت قمراء - بينما أنا مستغرق فى هذه المشاهد والمناظر والملذات والملاهى ، إذ انقطع بغتة سلك هذه الذكريات وتبدد نظامها ، وتوجه التفاتى ثانياً إلى الصورة فألفيتى أنظر فيها محملاً ، وأرنو إليها محمداً .

ماذا أرى ؟ ..

لقد اختفت قلنسوة الرجل الممثل فى تلك الصورة ! .. فأين ذهب القلنسوة وما عليها من الريش ؟ .. وما ذلك الشيء الأغبر الذى يحجب جبين الرجل وعينه ؟ .. ترى سقف السرير يهبط فى حركة بطيئة ؟ .. أبى جنون أم سكر أم خيالات أحلام أم ماذا ؟ .. أم الحقيقة أن سقف الفراش يهبط من فوقى فى ببطء وخفية وسكينة . « كاللوت مستعجلاً يأتى على مهل » حينذاك أحسست كأن الدم قد جمد فى عروقى ، ومشت فى جسدى قرة وقشعريرة ، والتفت

إلى الصورة فأدمنت فيها النظر لأستبين بذلك حال السقف وهل هو ثابت مكانه أم يهبط حقا ..

وسرعان ما تجلت لي الحقيقة ! .. لقد ألفت رفر السقف محاذيا لخاصرة الرجل ، وبقيت أنظر فإذا شخص الرجل كله إلى قدميه ثم إطار الصورة ذاته يتوارى من العيان على أشد ما يتصور من المهل والبطة والخفاء .. وذلك على أثر هبوط رفر السقف . وعند ذلك أصابني من الروح والفرع ما أصابني ، ونظرت مرتجف الأوصال مستطار اللب إلى تلك الآلة الجهنمية التي كانت تدنو مني رويدا لتخمد أنفاسي .

نظرت إلى ذلك الموت العاجل فاقد الحركة والنطق والأنفاس ، وكانت الشمعة قد فئت فخبها ضياؤها ولكن القمر كان يضيء أنحاء الحجر ، وجعل سقف الفراش لا يزال يهبط ثم يهبط بلا صوت وبلا توقف ، والرعب لا يزال يقيدني بالفراش تقييدا ويشدني إليه شدا - نعم لقد جعل ذلك السقف يهبط ثم يهبط حتى شممت رائحة بطائه التربة .

وفي تلك اللحظة الأخيرة تحركت في غريزة حب البقاء فأيقظتني من غمري فتحركت ، ثم ألفت بنفسى من الفراش إلى الأرض وقد مس رفر السقف كفى .. !

ثم نهضت إلى ركبتي لأرقب حركة ذلك السقف ، وقد تجمعت حواسي ومشاعري وروحي في لحظ عيني وأنا أنظر إلى ذلك المشهد المدهش .

رأيت السقف بأكمله ومن حوله رفره يهبط رويدا رويدا ، واشتد دونه من الفراش حتى لا تكاد تدخل أصبعك بينهما ، ولست جوانب ذلك السقف فإذا هو ليس - كما كان يخيل لي من قبل - بذلك الغشاء الرقيق الذي تسقف به الأسرة عادة ، ولكنه مرتبة ضخمة غليظة مكبوسة الحشو ، ثقيلة الوزن كالصخرة الصماء وإنما كان يجب كل ذلك رفره وهدايه . ثم نظرت فرأيت أعمدة السرير الأربعة تسمو صعدا في فضاء الغرفة عارية فظيعة المنظر ، ورأيت في وسط السقف لولبا (قلاووظا) ضخما من الخشب وكان ينفذ من الغرفة العليا خلال ثقب في أرضيتها ، وذلك اللولب أو القلاووظ هو الآلة التي أنزل بها سقف الفراش على

نحو ما تنزل آلة الطباعة العادية على المائدة المعدة للطبع ، وكانت هذه الآلة الجهنمية بلا أدنى صوت ولا حس ، ولم يسمع لها أدنى صرير أثناء هبوطها ولم يك يسمع أدنى حركة فى الغرفة العليا ..

ولم أزل وأنا أنظر إلى تلك الآلة الشيطانية مسلوب القوة لا أستطيع حراكا ولا تنفسا ، ولكنى استعدت قوة التفكير ، فاستكشفت تلك المؤامرة الفظيعة التى قد دبرت لسلبى واغتيالى .

علمت أن قدح القهوة الذى قدم إلى كان مشوبا ببعض المخدرات الشديدة، وإن الذى أنفذنى من الهلاك المحتم هو أنى تعاطيت من المادة المخدرة فوق المقدار المقرر ، وإن نوبة الحمى التى أصابتنى من ذلك المخدر هى التى أنفذتنى بما هيئت من أعصابى وأثارت من دمى ، وشردت من نومى فأبقتى يقظا متبها . ما أشد حماقتى وسفاهة رأى حيث أسلم قيادى إلى ذلك المجرم الأثيم الذى استلب قوتى وساقنى إلى هذه الحجرة ليقتلنى فى فراشى شر قتلة وأخفاها ثم يأخذ مالى ، وكم من رجل مثلى صنع به كما حاول أن يصنع بى فنام فى هذا الفراش نومة لم يسمع به من بعدها ولم ينظر ! .. هذه الفكرة وحدها خلعت قوادى وارعدت فرائضى !

انتبهت من تيار هذه المواجهس على أثر رؤيتى سقف الفراش يتحرك ثانيا ، وذلك أنه بعد بقاءه فوق الفراش نحو عشر دقائق أخذ يرتفع ، وكأن المجرمين الذين أنزلوه من الحجرة العليا أيقنوا أن مأموريتهم قد تمت على ما يرام فجعل ذلك السقف يصعد فى سكينته ومهل كما هبط من قبل ، ولما انتهى إلى أطراف الأعمدة الأربعة كان قد انتهى أيضا إلى سقف الغرفة ، وبذلك اختفى الثقب والقلاووظ فلم يك فى مقدور أى امرئ أن يتبين مكانهما ، وبدا الفراش فى ظاهره كآى فراش عادى والسقف كآى سقف عادى .

وحينئذ ألفتيتى لأول مرة أستطيع الحركة فنهضت من ركنتى واقفا وارديت ثيابى وأخذت أفكر كيف أهرب ، وكنت أعلم أنه إن سمع منى ما يدل على أنى لا أزال حيا فإنى مقتول لا محالة فطفقت اتسمع موجها نظرى إلى الباب .. لا حس ولا حركة ، فاطمأن قلبى وعلمت أنه لم يشعر بى أحد ، ثم أخذت

أفكر في طريقة الفرار فلم أجد مخرجاً سوى النافذة فدنوت منها على مشطى قدمي .

وكانت غرفتي في الدرو الثاني من المنزل تطل على الشارع الخلفي . فرفعت يدي لأفتح النافذة وأنا أعلم أن على هذه الحركة البسيطة تتوقف حياتي ويتعلق خيط أجلي ، وذلك أن دار السفك والاعتقال حزية أن تذكي فيها الأرصاد والعيون وتشدد الرقابة. لقد علمت أنه إذا بدر من زجاج النافذة أدنى صليل أو من مفصلها أدنى صرير فإنني هالك لامراء ، وأحسب أن فتحي النافذة لا بد أن يكون استغرق مني مالا يقل عن خمس دقائق في الواقع ، وخمس ساعات في الوهم .

وقد أفلحت والحمد لله في فتحها بكل سكينة كما لو كنت لصاً ماهراً مدرباً . ثم أطللت على الشارع فتبين لي أن الوثوب إلى الأرض مصحوب بالهلاك لا مشاحة . فنظرت إلى جانبي النافذة من الخارج فأبصرت على اليمين أنبوبة للماء ممتدة من أعلى الجدار إلى أسفله فعلمت أن الله قد مد في أجلي وكتب لي النجاة ، وهنا انطلقت أنفاسي خالصة لأول مرة بعد طول بهر وجبسه ..

وكنت من أحذق الناس بالتسلق والانحدار لفرط مهارتي في الألعاب الرياضية ، فرأيت الهبوط من تلك النافذة إلى الشارع على أنبوبة المياه من أبسط لأشياء وأسهلها . فصعدت على النافذة وأدليت برجلي منها ، ولكنني تذكرت إذ ذاك مندبيل المملوء بالذهب وكان تحت الوسادة فرجعت إلى الفراش فأخذت الصرة وربطتها إلى ظهري بحمالتي ثم تسلقت النافذة وشدت على أنبوبة المياه بكلتا يدي وركبتي .

وانحدرت إلى الشارع بكل سكون وسهولة ، ثم أسرعرت إلى مكتب البوليس وهناك قابلت المأمور وأخذت أتلو عليه حديثي حتى إذا فرغت منه نهض ذلك الضابط ولبس قلنسوته وأعطاني قلنسوة أخرى (وكنت عاري الرأس) فلبستها وأمر بإعداد فرقة من الجند وسأل أعوانه من مهرة البوليس أن يعدوا من الآلات كل ما يلزم للكسر والحفر والنزع والصدع وما أشبه ذلك .

ثم سرنا جميعاً إلى بيت القمار ، وبمجرد وصولنا أقيم الخفراء والحرس حول

المكان من كل جانب ، ودق الباب دقا متواليا وصاح الجند « افتحوا باسم القانون ! .. » فانفتح الباب فى الحال عند سماع ذلك الاسم المهيّب ، وولج المأمور باب البيت فصادفه فى المدخل أحد الخدام شاحب الوجه مرتجف الأوصال ، فسأله المأمور قائلا :

« نريد أن نقابل الفتى الإنكليزى الليلة » ..

« لقد ذهب منذ بضع ساعات » ..

« كلا لم يذهب ، إنما ذهب صاحبه وتركه ههنا ، فأرنا مضجعه فى الحال » ..

« أقسم لك يا جناب المأمور أنه ليس هنا ولقد خرج » .. .

« أقسم لك يا جناب الجرسون أنه هنا ، ولقد حاول أن ينام عندكم فألقى الفراش غير صالح فجاءنا يشتكى ذلك ، وها هو ذا بين جنودى وها أنا ذا أريد أن أفتش ذلك الفراش عن برغوث أو اثنين ، يا جاك (مناديا أحد جنوده ومشيرا إلى الجرسون) اقبض على ذلك الرجل وشد كتافه ، والآن أيها الإخوان اصعدوا بنا السلم » .. .

وكذلك قبض على جميع من كان بذلك المكان وفى طليعتهم الجندى القديم ، ثم إنى أطلعت المأمور على الغرفة التى فيها الفراش المعهود ، فصعدنا إلى الغرفة التى فوقها فدخلناها .

وهنا أمر الضابط بحفر أرضيتها فألفينا فراغا مجوفا بين هذه الأرضية وبين سقفا لغرفة لتى تحتها ، ورأينا صندوقا مستطيلا رأسيا من الحديد فى هذه التجويفه ، وفى هذا الصندوق يمتد القلاووظ آنف الذكر رأسيا ، وشاهدنا أيضا لوالب أخرى مزينة وعتلات وسائر الآلات والأدوات المستعملة فى إدارة أمثال ذلك الصنف من المطابع ، وكلها قابلة للتركيب والفك بغاية الإحكام ، وكانت فى تلك الآونة مفكوكه فحاول الضابط تركيبها استعدادا لإدارتها وتشغيلها فأفلح بعد جهد وعناء ، وأمر رجاله أن يستعدوا لإدارتها ثم هبط معى إلى الغرفة التى تحتها المختوية على الفراش المعهود ، وأصدر أمره إلى رجاله بتشغيل تلك الآلة الفظيعة ، وهنا أبصرنا سقف السرير يهبط كما رأيته يهبط من قبل .

وعلمت بعد ذلك أن الجندى العتيق كان صاحب ذلك البيت الجهنمي، وأن التحقيق أثبت عليه جنايات أخرى من هذا القبيل وأنه قد صدر عليه الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة .

وقد كان هذا آخر عهدي بالقمار وبيوت المقامرة .

الصورة المحجوبة

فى غرفة مشرفة بعليا منزل فى ميدان « ملن » بإحدى مدن اسكوتلنده كانت تجلس المسز « ليونز » - امرأة كهلة أحنى عليها الدهر بعد عيش رغد طالما تقلبت فى ظلاله بين أكتاف النعمة وأعطاف الرخاء . وكان يجلس إليها الطبيب « والتر هاتن » فتى فى ريعان الشباب من هواة فن التصوير وكان قد أوفد لمعالجتها من قبل أحد المستوصفات الخيرية .

كان هذا الفتى من أسرة غنية قد أولع بفن التصوير وقد احترف الطب لا عن رغبة فيه ولكن مجارة لمصطلحات العرف ، ورشما يبلغ فى فن التصوير مكانة تؤهله أن يتخذة صناعة .

لقد آنس هذا الفتى الطبيب من خلال أحاديث تلك المرأة ما دلّه على أنها لابد أن تكون من الطبقات العالية على الرغم من سوء حالها وضعة مركزها » وكانت المرأة متكئة على مقعد بجانب الموقد »

قال الطبيب « معذرة سيدتى . لقد أخطأ فيك ظنى . وأحسب أنه قد مر بك زمن أرغد من هنا . وأراك تبذلين نحوى من فرط الحنان والعطف وكثرة العظات والنصائح ما يرهمنى أنه قد كان لك مرة ابن غير صالح »

هذه الكلمات صدرت عن الشاب عفوا بلا قصد ولكن وقعها على المرأة كان شديدا ، فانتفضت وحدثت فى وجهه طويلا ثم أمسكت أحشائها بيدها وأرسلت زفرة حارة ووجمت لاتنطق .

وأبصر الشاب أن عينها الدامعة تحولت نحو صورة محجوبة بنسيج من الحرير معلقة فوق الموقد - لها إطار مذهب يناقض رونقه ولألأؤه غثاثة سائر أدوات الغرفة.

ولما كانت هذه الصورة مما شغل بال الفتى طويلا وحير له - اعزم أن ينتهز هذه الفرصة ليستفسر المرأة عن نبأ تلك الصورة فى رفق وتلطف .

ولكنه قبل أن يهيم من الألفاظ ما يصلح لمفاتيح المرأة في تلك المسألة بادرته الكلام فقالت :

« لا تذكر هذا الأمر يا فتي . حقا لقد كان لي ابن في مثل طهارة الملائكة وجمالها ، ولكن الأقدار حينما رأت شدة شغفي وتعلقى به انتزعت من يدي »
ثم جعلت المرأة تبكي وتتحب - وبداها تستران أسرة وجهها وغضونه . قال الشاب « أو قد مات ؟ »

فصاحت المرأة « هو فيما يخصني جدير أن يحسب في عداد الموتى . إنه في زمره الأشقياء يحترف اللصوصية يتعقبه الجواسيس وتطارده الشرطة . لقد كنت أيام نعمتي أسكن بلدة « بيزلي » مرموقة موموقة مغبوبة محسودة لا هم لي سوى تربية ابني اليتيم . ويزعمون أنه كبير وصار رجلا وأنه يسرق كلما عثر عليه وأنه انضم أخيرا إلى زمره الأشقياء حثالة المجتمع ونفايته المطاردين المطرودين من حظيرة الإنسانية .

لقد انقضى عصر النعيم فلم يبق إلا ذكره المنتسم أو عهده المتوهم . ولقد يسرنى إذا خطرت على قلبي ذكريات غلامى أن أتخيله قد مات وقبر . وإن يد الحمام قد اختلسته من يدي طاهرا مطهرا بريئا من المذمات منزها عن المآثم حسبما هو ممثل في هذه الصورة « وأومات إلى الصورة المحبوبة .

قال الفتى الطيب « إن حديثك ليحرك من نفسي ساكنا . أتأذنين لي أن ألقى نظرة على هذه الصورة ؟ وقد تعلمين أنى أتعاطى فن التصوير وأنى من أشد طلابه غيرة وإخلاصا . ولعلى جاعله يوما ما صناعتى وحرفى » .

قالت المرأة « إنه لما لك عندي من الحرمة والكرامة - ولكي ترى كيف ينقلب البر فجورا والصلاح طلاحا ، وكيف تستحيل البراءة إجراما والفضيلة رذيلة ؛ لن أرفض طلبك » .

فقدم « والترهاتن » إلى الصورة وأماط حجابها . وما يبصرها حتى ارتد حائرا دهشا وأرسل من شدة سروره وعجبه صيحة أعقبتها فترة سكوت مفعمة بمزيد الابتهاج والطرب .

لقد كانت صورة صبي صغير مورد الوجنتين قد اكتسى عياه نقابا مشرقا

من غضارة النعيم والعافية ، وتسترسل على كتفيه وأعطافه غدائره الذهبية ، وهو يطل من خلال كرمه فى بستان تعبث يمناه يعنقود من أعنابه ، وبأسفل الإطار مكتوب (عنقود ناضج . جيمس ليونز ، سنة ٧ سنين) .

أعقب ذلك سكون عميق كان الفتى أثناءه فى نشوة من الطرب والإعجاب بجمال الصورة - والأم فى سكرة من ذكريات الماضى . وبعد طول تدبر وتأمل فى محاسن الصورة قال الفتى « تالله ما رأيت قط فى عالم التصوير شيئا يدانى هذه الملحة البديعة روعة وجلالا . أتعرفين قيمة هذه الصورة ؟ أتدريين أنها تقوم بمال كثير - خمسمائة ليرة بل أكثر . »

قالت الأم (طالما نعت ذلك من كثيرين فى الزمن الغابر ، أيام نجلى جيمس يرتع بين يدي فى أفياء النعيم تقيا بريئا لم تشبه شائبة . وكما أصابتنى الحزن من بعد ذلك وأملت بى الملمات ، ولكنى لم أفكر قط لدى أشد نكباتى فى بيع هذه الصورة - وذلك من أجل غلامى ومن أجل اليد التى أبدعت الصورة - فاعلم يا سيدى أنها آخر ملحمة دهجتها ريشة زوجى وذلك قبيل وفاته . فهى ثمرة من ثمار الحنان والحب الأبوى . ولن تقوم بالمال مهما كثر . وتالله ما كنت لأهبها ولو أعطيت فيها منجما من الماس . »

فانهدمت آمال المصور الصغير عند سماع هذا القول الصريح . ولكنه ولى وجهه شطر الصورة ولبث يرنو إليها بعين تشف عما كان يخامر وجدانه من عوامل الحسد والطمع .

ثم قال للمرأة « ليس فى نيتى اشتراؤها . على أنك لو أردت بيعها لدفعت بها ما تطلبين - ولكن ألا تسمحين لى أن أنقل صورة منها - لأدمجها فى صورة أعانى الآن رسمها ؟ »

قالت المرأة « ومعنى ذلك أن صورة ابنى ستعرض فى تضاعيف رسمك على أنظار الناس وتتخطفها الحافظهم ؟ »

قال المصور الصغير « أجل ستعرض على الأبصار ولكن فى شكل آخر - وعلى فرض أن بعض من كان يعرفك فى غابر الأيام اطلع عليها فعرفها فلن يقول فيها إلا خيرا . وبعد فإنى واهبك ما تشائين وواعدك أن أبذل فى صيانتها من

العناية والاهتمام فوق ما تستطيعين » .

لقد قرأ الفتى آية الرفض والإباء مسطورة على صحيفة وجهها .
ثم أكدتها بقولها « ليس فى طاقى أن أقضى حاجتك - إذا لا أستطيع أن
أتخلى عن الصورة طرفة عين » .

فألح الفتى قائلاً « ولكن اذكرى ما سوف تنالينه من المال الجسيم » .
« لا حاجة بى إلى المال - لقد كان فى حوزتى مرة - وما لبث أن مضى وأخذ
معه غلامى الأوحى وأمه . وقد لقيت من جرائه الضر والبلاء فيما مضى فليست
على ذهابه باكية ولا لولشك إياه راجية » .

بماذا يرد الفتى على مثل هذا القول الحاسم ؟ هذا الفتى الذى نشأ فى النعمة
واعتاد أن تبذل له الطاعة العمياء من خدمه وأتباعه - كيف يتلقى هذه الصدمات
المتوالية من مثل تلك المرأة ؟ - لقد احتدم غيظاً واستطار شواظ الغضب فى
صدره حتى سطع على وجنتيه جمرًا مؤججاً ، فتنفس الصعداء وعض على يديه
ندماً . ولكن إباء المرأة لم يزد له إلا لجاجاً وطمعاً فأعاد الكرة .

« اسمح لى أذن يامسر ليونز أن أنقل منها صورة موجزة ههنا وبمراى
منك » .

قالت المرأة « كلا ! لقد أخطأت يافتى إذ سمحت لك أن تبصر الصورة » ثم
نهضت فى صعوبة وسعت إلى الصورة فأسدلت عليها حجابها وأستأنفت الكلام ،
قالت (اجعل هذه الصورة فى حكم ما لم تقع عليه عينك . وقدر أنك لا تعرف
ما وراء ذلك النسيج الحريرى . إن أمامك دروساً كثيرة تتلقاها قبل أن تبلغ مراتب
أولى النبيل والمروءة) .

فقال الفتى « أما لو علمت أن كل آمالى معلقة على نجاحى فى صناعة
التصوير، وإن هذا النجاح معلق الآن على هذه الصورة - وإن حرمانى من اندماجها
فى الصورة التى أزال اليوم صنعها هو حرمانى من أقدس آمالى فى الحياة ومن
كل لذة ومتاع وتسجيل الشقاء على أبد الأبدىين - لما أصررت على إيبائك ولما
تماديت فى رفضك ولأخذتك الشفقة على فسمحت لى بما فيه جل سعادتى
وليس عليك فيه أدنى أذى - وبعد فهأنذا سيدتى مائل بين يديك أترقب منك

كلمة واحدة يتوقف عليها حظي : فإما إلى أوج الرفعة والمجد ، وإما إلى الهاوية !
وعلى الرغم مما حركته هذه التضرعات من عواطف المرأة أصرت على رفضها
ولقد تبددت سيول فصاحته الدافقة على صخرة إبائها الصماء !
وعلى هذه الحال انصرف الفتى « والتر هاتن » وهو يقول « لا بد من الحصول
عليها لو ألجئت إلى استخدام من يسرقها »

وفي اليوم التالي عاد إلى مفاوضة المسز ليونز في أمر الصورة فكان جوابها
الصمت والإعراض . وبعد يومين - وكان لا يزال متماديا في إلحاحه - طلبت إليه
المسز ليونز في أدب وتلطف أن يقطع عنها زيارته بحجة أنها قد شفيت من علتها
شفاء تاما فأصبحت ولا حاجة بها إلى معونته . فأجابها الشاب إلى طلبها مع
إدراكه أنها لم تكن سوى حجة باطلة لفقت للتخلص من إلحاحه . واتفق بعد
ذلك بأيام أنه كان ذات ليلة في ملهى يلاعب صديقا له لعبة البليارد « فقال له
ذلك الصديق عرضا : « أتعرف ذلك الجالس هنالك ؟ » مشيرا إلى رجل على
كثب منهما : « هذا من أمهر لاعبي البليارد وهو يتخذ ذلك حرفة ومترقا .
ولكن ميزته الكبرى أنه من أمهر اللصوص ، على أنه قد ترك حرفة اللصوصية
وأصبح اليوم كأشرف إنسان) .

لقد رسخت هذه الكلمات في فؤاد الفتى فأنبتت به فكرة غريبة ، فعمد بعد
برهة إلى ذلك اللص التائب واتحى به جانبا من المكان وأخذ يسير غوره فيما
يتعلق بمسألة الصورة ... تلك المسألة التي كانت أشغل الأشياء لجنانته وأمسها
لوجدانه .

قال « أتعرف من بين أفراد طائفتكم من يقوم لي بهذه المهمة مقابل مبلغ
يسره ؟ »

فأجاب الرجل « أعرف كثيرين ، ولكن أحذقهم هو المدعو (كورين جيم)
فإذا شئت استخدامه في مهمتك فأوصه أن لا يستعمل العنف فإن له يدا سريعة
إلى البطش وهذا كل ما يؤخذ عليه . أما فيما عدا ذلك فليس في الطائفة من
يدانيه خفة ومهارة . فإن شئت فهل بنا إلى مقر ذلك الهمام (كروين جيم) .
جرى هذا الحديث همسا في غرفة الشراب ولم يكن بها إذ ذاك إلا رجل

واحد كان حسب الظاهر مستغرقا فى النوم على مقعد قرب الموقد .

فلما غادر المكان (والتر هاتن) ورفيقه تحرك الرجل المتناوم فى مقعده وفتح عينيه ونصب أذنيه . فمن ترى يكون ذلك الرجل . هذا هو المستر « سيمون » المخبر .

قال هذا الرجل لنفسه وقهقهه طربا (شغلة جديدة لى ولرئيسى المستر « منلو » إن السيد الهمام (كورين جيم) لأمهر من تسلق جدارا . واستلب أسوارا . واختلس دينارا . ولكنه قد قارب مدهاء ، وأشرف على متنهاه ، هكذا الدنيا وهكذا الحياة !) .

وبعد هذه المناجاة الفلسفية غادر المكان وسار يؤم منزل رئيس البوليس السرى المستر (منلو) .

فى هذه الأثناء كان الطبيب المصور (والتر هاتن) ولأعب البليارد يتخللان كهوف اللصوص وغيرانهم بحيحهم المملوء بالنكرات والخبائث ، حتى انتهيا إلى مركز الرياضة أو المعسكر العام فى (وادى التعيم) (كذلك كان يسميه اللصوص) . وهنالك ألفيا ضالتهما المنشودة (كورين جيم) .

لقد دهش المستر أرثر هاتن وأخذ منه العجب كل ما أخذ حينما أبصر فى شخص ذلك اللص (كورين جيم) شابا مؤدبا جم الحياء ، رقيق الحاشية مهذب اللفظ ، رخيخ المنطق لا يشوب جوهر كلامه خبث الألفاظ السوقية وخشونة لهجة الرعاع والسفلة ، ولولاما انطبع على صفحة وجهه الشاحب من عنوان الجريمة الناصع لما شك (والتر هاتن) فى أنه إنما يخاطب ندنا له ونظيرا ينزل المجتمع فى مثل درجته ونصابه ، وكانت حركات من الفتى (كورين جيم) وإشاراته تدل على أنه قد كان حينما ما أسمى مكانة وأطيب عيشا . ولكن الذى زاد (والتر هاتن) دهشة وحيرة وجه الفتى « كورين جيم » إذ تبين أن هذا الوجه ليس جديدا ولا غريبا فى عينه وأنه قد شاهد شيئا يماثله ولكنه لم يستطع أن يتذكر متى ولا أين .

وقص (والتر هاتن) على ذلك اللص نبأه وحاجته قائلا :

« سأريك السلم بنفسى ، ومتى بلغت أعلاه وجدت غرفة المرأة ، وما أحسب أنك ستجد كبير شقة ، فباب الغرفة رقيق واه يستطيع أى غلام أن يحطمه بصدمه

واحدة .

قال اللص : على تنفيذ مشيقتك فلا تضيق بذلك الأمر ذرعا ، واحسبه أنه قد تم على أحسن ما تروم . كم تدفع فى ذلك ؟ .

« خمسة جنيهات ، أترضيك ذلك ؟ » .

(حسبى به فإن فيه الكفاية . اعطنى عنوان دارك وسأتيك بالصورة فى ظرف ثلاث ساعات) .

فسلمه الطبيب المصور رقعة بعنوانه وبذلك تمت المفاوضة ، وانفض الجماعة كل فى طريقه .

وشرع (كورين جيم) فى إعداد عدته ، فتناول بضع آلات حداد ومصباحا خفيا وتكر فى زى التلصص ، وخرج يتسلل فى ظلام الدور والمساكن حتى وصل إلى السلم المعهود ، ووافق وصوله ثمت وصول المخبر « سيمون » ورئيسه (منلو) .

خلع اللص (كورين جيم) نعليه وتسلق السلم فى مثل خفة الأعصم وسرعة الظليم . ولما بلغ باب الغرفة أخذ يجس مصراعيه وأخلاقه فى رفق ولطف ليهتدى إلى أسرع وسائل اللوج وأخفقتها . وبينما هو فى ذلك ، إذ وجد لحسن حفظه أن الباب غير مغلق فما كاد أن يحركه حتى الفتح ، فتمهل ريثما يستطلع حالة المرأة ألى بقطة أم هجوع . فسمع من غطيظها ما جدد أمله . ثم أجال عينه فى جدران الغرفة فاستطاع بضوء الموقد المفضائل أن يبصر الصورة المشودة .

فقال فى نفسه : لقد سنحت الفرصة ! وما هى إلا طرفة عين حتى أطلق بالصورة وما شعر بهى أحد .

ثم انساب فى الغرفة السياب الأرقم ، وانقض كالأجلد على الصورة فأنشب فيها برائته .

وحين هم بالخروج أبصر المرأة تحديق إليه بعيتين مذعورتين ، فجمد مكانه كأنه تمثال من الصخر . وفى تلك اللحظة صاحبت المرأة صيحة دوى صداها فى أنجاء الحجرة ووثبت من مرقدما فألقت بنفسها على اللص .

فدمدم اللص « أحمد الله أنقاسك ! فضى يديك عن الصورة » وكانت قد أمسكتها بمثل قبضة الغريق ، وحاول عبثا أن يخلص الصورة من يديها .

أطلقها وإلا أطلقت روحك من بين أضلاعك .

فصاحت المرأة التعمسة وهي تتشبث بأعز ما بقي لها في هذه الحياة الفانية -
بذخرها الوحيد ، بمناط أملها وقرعة عينها .

« الغياث والمبدد ! اللصوص سفاك الدماء . لن أدعها ولو تزهق روحى ! »
وهنا خرت المرأة صريعا بصدمة شديدة من يد اللص وسقطت الصورة إلى
الأرض وغطاؤها الحريرى ممزق فى يد المرأة الصريع ، وإطارها البديع ملطخ بدمائها
وقال اللص فى نفسه (لقد أبت إلا أن تنال منى هذه الضربة . لقد طالما جادت
يدى بالملئات من أمثالها فلم أسف ولم أندم . ولكن أرانى الساعة على ما بدر منى جد
نادم . وثالثه لا أعرف لذلك من علة ، ولكن أين الصورة ؟ » ثم انحنى لبحث عنها
وفىما هو كذلك انحدر غطاء المصباح قليلا فانبعث منه شعاع إضاء الصورة .

ماذا أصاب اللص الخبيث (كورين جيم) ؟ وماذا دهاه ؟ وما باله قد انتفض
وأرعد وجعل يرنو إلى الصورة الحسناء بمقلتين جاحظتين تكادان تطفران من
حجاجيهما ، وقد جمدت أوصاله ونحجرت عضلاته وأعصابه ووقفت دقات
قلبه ؟ وما له صاح صيحة منكرة كأن فؤاده قد انتزع من صدره وخر إلى ركبتيه
يحاول احتمال المرأة بين ذراعيه غير مكترث لنذير وقع أقدام خارج الغرفة ؟
ثم صاح قائلا « أمه ؟ وابلوتاه ! لقد قتلت أمى ! » وأهوى إلى المرأة فجعل
يقبل الدم المنسجس من جبينها الشاحب ، ويدلك يديها ويحاول بكل وسيلة أن
يرد عليها حواسها .

وبعد مشقة فتحت المسز ليونز عينيها وتنفس الصعداء ونظرت فى وجهه
ولكنها لم تعرفه .

فصاح « أمى : أمى : أنا جيمس ، ابنك جيمس ! » .

وقالت بصوت خافت وكأنها فى حلم « كلا ، كلا ! لست به ، لقد مات
وقبر » ثم ارتدت إلى غيوبتها . وفى الرقت ذاته دفع الباب ودخل رئيس
البوليس المستر (مندو) والمخير (سيمون) فانقضا على (كورين جيم) وحاولا
اجتذابه عن المرأة الجريح . ولكن اللص الشديد البطش بدلا من هجومه عليهما
هجمة الليث ومصارعهما صراع النمر - كما كان ينتظر - استمر منحنيا فوق المرأة

الفاقدة شعورها يصك يدا بيد ويصيح :

« لقد قتلتها : لقد قتلتها : خلوني : خلوني ثم اشتقوني أملم الملاً أجمع .
أماه .. أماه .. أوهكنا انتهت مأساة حياتك ؟ » .

وهنا تقدم المخبر (سيمون) فوضع الأغلال في يدي كورين جيم وساقه
إلى مكتب البوليس ، ومن ثم أرسل جراحاً لعلاج المرأة .

وفي صباح اليوم التالي طلعت المسز ليونز على موظفي مكتب البوليس معصوبة
الرأس تكتنفها امرأتان تساندانها ، والتمست إلى موظفي المكتب بصوت شجي
يستذيب الصخرة الصماء أن يؤدوها إلى حجرة السجن . فأجابوا دعاءها ، على أنه
لم يدر أحد مادار بينها وبين ابنها جيم أو جيمس في تلك الخلوة . على أية حال فلقد
هدأت تلك المراقبة من روعها وسكنت من جأشها رغماً مما كان يبدو على وجهها
من أثر البكاء أثناء تلك الخطوة . ثم إنهم أجلسوها على مقعد مخوف بالمساند إلى
جانب الموقد حيث لبثت لحين ابتداء التحقيق . وفي الساعة العاشرة قدم المكتب
رئيس البوليس المستر « مندو » ، فأعلم بقدم المرأة ، فدخل عليها ولما عرفت من
هو ، أسرت إليه بمقالة طويلة كلها رجاء وابتهاال واستعطاف واسترحام ، وقد
أمسكت بإحدى يديه وبللتها بدمعها الغزير . ولما أخذ شؤبوب توسلاتها الحار يسبح
ويهضب على أذني ذلك الرجل الصارم الغليظ الكبد ، أقبل عليها وجعل يسألها ،
ثم أنصت إلى حديثها مقطوع الأنفاس . ولما قالت له أخيراً « تذكر أنني أمه وأنه ابني
الأوحد فارحمه كما تود أن تبوء برحمة من الله - انطلق وجهه العبوس وانبسطت أسرته
الجعدة ، ثم انحنى على يد المرأة فقبلها . »

بدأ التحقيق . وكان من سئل المسز ليونز .

قال قاضي الجلسة « أتعرفين هذا الرجل ؟ .. » .

« نعم . هو ابني » ..

« أتتهمينه بالمهجوم على دارك واعتدائه هذا الاعتداء القطيع على شخصك ؟ .. »

« كلا ! .. إن ابني جيمس هذا ما كان لينالني قط بالأذى » ..

« أتعتين حقاً أنه لم يرتكب هذه الجناية ؟ .. إذن فمن الذي أصابك بهذا ؟ .. »

« لا أدري . كل ما في الأمر هو أنه جاءني بعد غيبة أعوام عديدة فأغمرني

على بين ذراعيه من فرط تأثرى . ولما انتهت ألفيت جرحا داميا فى جبهتى وجراحا يعضده ..

وهنا أرسل المتهم أنه عالية شديدة وخطى وجهه يديه .

« أو لم تكونى سالفا فى رخاء ورغد فأباد هذا الجانى نعمتك ، وبدد ثروتك ؟ .. »

« لم تكن ثروتى بل ثروته . ولم يبددها من تلقاء نفسه ، ولكن بإغراء جماعة من الغواة الأشرار . ولو علمت حقيقة الأمر ياسيدى لما أردتنى على الشهادة ضده . ثم إن المرأة التعمسة سترت وجهها يديها وأخذت تبكى وتتنحب .

قال القاضى : « لافائدة فى سؤال هذه الشاهدة ، أحضروا رئيس المخبرين المستر مندو .. »

فقدم المستر « مندو » وأرسلت المسز ليونز أذليها لتنصت إلى شهادته ..

« أتعرف هذا الرجل ؟ .. »

« أهوله ، وهو معروف باسم كورين جيم »

« أهداك ما يحملك على الجرم بأنه قد حاول أمس ارتكاب جريمة السطو على دار المسز ليونز ؟ .. »

« كنت ظننت ذلك بالأمس ، ولكن تبين لى بعد ألى منخطىء ، وأن حلولة أمس دار أمه لم يكن إلا على قصد زيارتها .. »

فواصل القاضى مجهوداته فى التحقيق مع المستر مندو ليستخرج منه خلاف ما قاله فلم يفلح . وأبى رئيس المخبرين أن يزيد على ما أدلى به حرفا واحدا .. فأمر القاضى بحفظ القضية لعدم توافر الأدلة الكافية ، وأطلق سراح المتهمين .

ويسرنى أن أقول إن « كورين جيم » ، اللص الفاجر ، قد انمحق أثره من الوجود بعد هذا الحادث ، ولكن جيمس ليونز البار الصالح كان يرى من ثم فصاعدا بأحد البلاد المجاورة عاملا أميناً فى أحد المتاجر ، عضدا متينا لوطنه ، وقرة عين أمه ، وعماد هرمها .

الخطوط الثلاثة

في شفق يوم صائف على الطريق المؤدية إلى قرية بضواحي « شيكاغو » كان يرى رجل طويل القامة أسمر اللون تدلك هيئته على أنه ما يرح نضو أسفار ، وحسب رحلات ذات أخطار ، وكانت عصاه التي يتوكأ عليها مما اقتطعه بيده من خيزران أحراش الهند ، والقلنسوة التي تظلل جبينه المكفهر وهو يلج باب قريته ومسقط رأسه هي التي وقته وهيج الحُرور ، في هضاب الأندلس ووقدة المهجر في تنانيس فارس ، وكان الذي سفع وجنتيه ، ولوح ديباجته هو لظى السمائم بغيا في الهامة وفلوات حضرموت ، وكم قاسى وخزات القر ، ولذعات الشمال الصرصر ، على مثالج القطب ، وكان لا يزال يحمل تحت لظاته الخنجر الذي ذبح به في القوقاز لصا من قطاع الطريق ، وما من أرض حلها إلا فقد بها حصلة من غصائل أهل جلدته ، واستفاد - من حيث لم يشعر - بخلة جديدة من خلال أهلها ، فلا غرابة أنه حينما عاد إلى قريته بهجوس خلخالها ، أنكره سكانها فلم يعرفه من بينهم أحد ، غير أنه حينما صادف في طريقه امرأة صغيرة انفضت دهشة وصاحت :

« رالف كرانفيلد ! »

وقال هو في نفسه ومضى في سبيله ، لم يقل ولم يلتفت :
« أعتقد أن تكون هذه رفيقة حدثتي وخطيلة طفولتي » فيث ايجرتون ؟ »
لقد شب « رالف كرانفيلد » على عقيدة أنه قد كتب له في هذه الدنيا السعادة القصوى ، ولا تدرى أبعاءته هذه العقيدة عن طريق السحر أم العرافة ، أم الكهانة أم العيافة ، أم الوحى والإلهام ، أم الرؤى والأحلام ، ولكنه كان يعتقد اعتقادا جازما أنه سينال من الدهر ثلاثة حظوظ عظمى تبشر بحصولها ثلاث آيات بينات . فأول هذه الحظوظ هو أنه سيصادف يوما ما في بعض جولاته الفتاة التي وحدها ، من بين جميع من على ظهر الأرض من الفتيات ، تستطيع مجيها أن

تسعه ، فكان عليه أن لا يزال يطوف في آفاق العالم حتى يصادف هذه الأنسة وعلامتها أنها تحمل على صدرها تمثال قلب مصوغ من جوهر ، لا يدري من زبرجد أو ياقوت أو مرجان أو فيروزج أو لؤلؤ أو ماس ، وإنما المهم أن يكون على شكل قلب ، ومتى لاقى تلك الأنسة عليه أن يخاطبها قائلا « سيدتى » لقد جئت أحمل إليك قلبا متعبا منهوكا ، فهل لى أن ألقى عليك أثقاله وأعباءه ؟ » فإذا كانت هى الغادة المعهودة الموعودة وحظه من الحياة ونصيبه ، أجابته ولمست حلية صدرها قائلة « هذه الآية التى ما زلت أحملها منذ عهد بعيد هى آية القبول والرضى » .

وثانى حظوظه هو أن هنالك فى بعض بقاع الأرض كنزا مدفونا لن ينكشف إلا له ، وآية ظهوره أنه متى وضع قدمه فوقه بدت له يد تشير إلى أسفل ، - لا يدري : يد من عاج أم مرمر أم يد من لهب فى الفضاء أم يد من جلد هائلة الجرم منصوبة على هاوية سحيقة قائمة الأعماق ولكنها يد تشير سباتها إلى أسفل تلوح من تحتها لفظة « احفر ! » حتى إذا حفر انكشفت له كنوز الذهب النضار ، دنائير مضروبة وأوسايتك والأحجار الكريمة أو غير ذلك من الذخائر والنفائس .

وثالث المعجزات الرقى إلى رتبة الزعامة والقيادة ، والسيطرة على أبناء جنسه ، لا يدري أياكون ملكا مطاعا ، صاحب عرش ومؤسس دولة أم قائدا منصورا يذود عن حريم أوطانه ويحمى دمارها ويحوط حريتها واستقلالها ، أم نبيا مرسلا بدين جديد ورسالة ، يبشر بوشك النجاة من خباثت العمران وحبائل الشيطان ، وآية ذلك الفتح المين أن يفد عليه ثلاثة من جلة الشيوخ الجحاجحة يهزون اللحاء الشيب يحمل إليه أكبرهم صولجان الملك أو عصا الزعامة أو النبوة أو لواء القيادة ، ثم يتلو عليه الرسالة .

وبهذه الفكرة الرقادة وهذا الخيال الملتهب ، وشبح المستقبل الباهر يتلأأ أمامه ويتألق ، انطلق « رالف كرانفيلد » من قريته يضرب فى شعاب الأرض ويجوب الآفاق يلتمس الأنسة والكنز وبشير الدولة الفيحاء والإمارة ؟ ، فهل أصاب ذلك ؟ كلا ! لقد عاد بعد عشر سنين من الكد والإعياء بالقفل والخيبة

وقد طوفت فى الآفاق حتى قنعت من الغنيمة بالإياب

لقد عاد إلى قريته ولكن بنية استئناف الرحيل بعد فترة من الإستراحة .

بلغ الرجل دار أمه فخرج ثمت على معاهد صباه وملاعب طفولته وعرج على الشجرة المورقة التي كان لا يبرح يلهو بأفنانها المهدلة أيام حداثته ثم أجال بين قضبانها وخيطانها فلمح بساقها كلمة كان نقشها عليها بمبراته أيام هبط عليه ذلك الوحي العظيم نبأ الحظوظ الثلاثة ، وتلك الكلمة المنقوشة هي « احفر » (إشارة إلى الكثر الموعود والعلامة الدالة عليه) ومن عجيب الاتفاق أن الشجرة كانت قد أفرزت من صمغها ما تلبد فوق تلك الكلمة المنقوشة وتكاثف ثم بدا على هيئة يد تشير سبابتها سفلا إلى الكلمة المذكورة « احفر » كما ورد في نص البشارة ، فلما شاهد الرجل ذلك ابتسم ابتسامة أليمة مضاضة من سخرية الحظ وتهكم الأقدار ، وقال في نفسه « عجباً ! أفعد هذا الجهد والجهيد وتلك المشاق والمصاعب ، بهزاً مني القدر ويومني كذباً وإضللاً أن الكثر يكمن هنا أمام دار والدتي في ذلك التراب المقفر العقيم ! ويحيى من سخرية هذا الحظ الهازل ! »

وفي هذه اللحظة خرجت عليه أمه ، ودعنا مما كان بينهما من فرحة اللقاء وكلمات التهاني ، ولترك الأم إلى سرورها وجلها ، والابن إلى استمتاعه بعد النصب بالراحة - إن وجدت الراحة إلى قلبه سبيلا .

ولما أسفر الصباح نهض « رالف كرانفيلد » من فراشه قلقاً مضطرباً إذ كانت رقدته ويقظته مملوءتين بالأحلام ، وتأرجحت في صدره جذوة التشوف إلى استكشاف السر العظيم . لقد وجد طوائف خيالاته وأوهامه وأسراب أمانيه وأحلامه تنتظره تحت سقف داره فأحدقت به وازدحمت حوله ، ولقد قضى على فراش طفولته ليلة أروع وأهول ، وأشد أرقاً واضطراباً وقلقاً ، من كل ما قضاه في خيام الأعراب بالصحرَاء ، أو تحت ظلال الأجمة اللقاء ، في ملاحف الظلماء ، وتراءت له عادة رود كعاب تدنو من فراشه وتلمس حلية صدرها المصوغة على هيئة الفؤاد ، وتراءت له يد من لهب تتوهج في الظلام ، وتومئ سفلا إلى سر غامض في أحشاء التراب ، وتراءى له شيخ شيخ وقور يليح له بصولجان الإمارة ، يدعوه إلى المضي قدماً لارتقاء أريكة الملك ، ولما بدا حاجب الشمس ، ولمع بريقها في أجنحة الطير ما برحت تترأى له هذه الصور والأشباح ، فلما استوى

شباب النهار وعلا رونق الضحى استمرت تلوح له وتتوارد ، وإن غض من بريقها ونقص من بهائها الضياء .

ولما بلغت الشمس كبد السماء ، واتعمل كل شيء ظله ، بصرت الأم من النافذة بثلاثة رجال قادمين خلال وهج الظهيرة وظلال الأشجار .

ولما ولجوا باب الدار ، صاحبت الأم محبورة تنادى ابنها :

- هلم يا رالف ، هالك السيد ه هو كود ، وآخرين من وجوه القرية قد سموا بالزيارة إليك لما علموا بقدمك !

وكان أولئك الثلاثة من أعيان القرية وسرايتها ذوى مزارع وحقول ، ولما كانوا يتقدمون فى بهو الدار ، جعل رالف كرانفيلد ، يصبو إليهم نظرة خارق فى غمار أحلامه ويكسو أشخاصهم الوضعية رونق عظيمة كدابة وجلالة باطلة من أشعة وهم المضلل ، ويحوك عليهم من نسج خرافاته حللا براقة ، ويفهمهم بجو خيالى وعالم مسحور .

وقال رالف ، فى نفسه وابتمس لما جال بخاطره ،

- ماذا على إن قلت لعل هؤلاء الشيوخ الثلاثة ، الحامل أحدهم عصا ضخمة طويلة ، إنما جاءوا يحملون إلى البشارة ؟

ولما دخل الثلاثة عليه نهض من مجلسه وتقدم نحوهم بخطوات ، وبعد تبادل الفحمة شرع أكبر الثلاثة فى إبلاغ رسالته قال :

= لقد ليظن بنا نحن الثلاثة مهمة القنخاب رجل كفاء ليشتغل منصبا من الخطير المناصب ، وينقلد زمام حكومة لا تقل أهمية وخطورة عن حكومة الملوك والسلاطين ! ولما كنا نعهد فيك العقل والنهى ، والحكمة والخجى ، وكنت قد استفدت بفضل رحلاتك العديدة ، وأسفارك البعيدة ، من التجارب ما أخلاك من نزق الشباب ، وأورثك حكمة أولى الألباب ، فلا ريب عندنا أن الله عز وجل لم يرسلك إلينا فى هذا الظرف الحرج العصيب إلا لتطرح عن كواهلنا هذا العبء الثقيل ، بولايتك ذاك المنصب الجليل .

وفى أثناء هذه الخطبة كان كرانفيلد ، يدمن النظر إلى المتكلم كأنما يستشف من وراء شخصه الرقيق الحقيق ، معنى خفيا من معانى العظمة والجلال ، وسرا

من غامض الأسرار ، ويخيل إليه أنه يواجه حكيما من فلاسفة الهند واليونان ،
أو كاهنا من كهنة فجر الزمان ، ولا غرو فإن ذلك الفلاح حينما دنا من « كرانفيلد »
هز إليه عصاه تلك الهزة التي جعلت آية صدق البشارة .

قال « رالف كرانفيلد » بصوت مرتجف :

- وماذا ، ماذا عسى أن يكون ذاك المنصب الذى تزعمون أنه معادل لمناصب
الملوك والسلاطين ؟ »

فأجاب المزارع « هو كروود » :

- هو منصب معلم مدرسة القرية ، وهو الذى خلا ب وفاة المعلم السابق
المرحوم ، المستر « هنرى » بعد قيامه فيه خير قيام زهاء خمسة وخمسين عاما .
قال رالف كرانفيلد :

- سأتدبر الأمر ثم أطلعك على عزيتمى فيه بعد ثلاثة أيام ..

ولما انصرف الوفد أطرق كرانفيلد مليا وأطلق لفكرته العنان فى أودية التأمل ،
فبدا له شبه قريب بين وجوه أولئك الرجال الثلاثة ووجوه الأشخاص الخيالية
التي كانت تراءى له فى أحلام يقظته ومنامه ، وحاملة إليه الرسالة الخطيرة ،
ولاسيما وجه زعيمهم المزارع « هو كروود » فيا عجبا ! أليس هذا الوجه بعينه
هو الذى أطل عليه من قمة هرم الجيزة الأكبر ، وهو بذاته الذى تراءى له بين
عمدان قصر الحمراء بالأندلس ، وهو - لاغيره - الذى تبدى له بين سحب الدخان
المتصاعد من فوهة « فيزوف » بإيطاليا . وكذلك فى هذه الهواجس وأشباهاها
سلخ الرجل سحابة يومه ، حتى اذا اصفرت غلالة الشمس وشافه الليل لسان
النهار ، نهض عن مجلسه فانطلق من الدار ، ولما صار بفنائها أخذت عينه ثانيا
تلك الكلمة التي كان نقشها فى مسالف الأيام على ساق الشجرة القائمة هنالك
وأبصر شبه كف (ما تكون على قشر الشجرة من إفرازاتها كما أسلفنا) تومىء
بسبابتها إلى الكلمة المنقوشة .

ثم سار فى شارع القرية حتى أتى دارا فدخلها فسمع من داخلها غناء حسنا
يرتله صوت عذب رخيم ليس بغريب على أذنه ، فاثار ذلك الصوت من أعماق
قلبه صدى ذكريات شجية قديمة .

وفيما هو يتقدم فى بهو الدار خرجت إليه من بعض غرفها امرأة صغيرة تسرع الخطو ، ولما بصرت به خفضت من سيرها واتأدت فى مشيتها ، حتى لاقتة وجها لوجه ، وقالت له « مرحبا ، مرحبا »

ولكن « كرانفيلد » لم يجيبها لأول وهلة ، لقد لمح على صدرها حلية على شكل قلب ، مصوغة من حجر الصوان ، ثم تذكر أنه هو نفسه الذى كان قد اتخذ لها تلك الحلية من بعض السهام الحجرية المعثور عليها كثيرا فى مواطن الهنود الحمر ، وبدت له هذه الحلية أشبه شئء بتلك التى كان لا يزال يراها بعين الوهم على صدر غادته الخيالية ، وكان لما هم بالرحيل فى مهمة مباحثه الوهمية أهدى تلك الحلية فى نصاب من ذهب إلى صديقة صباه وطفولته الآنسة فيث إيجرتون .

وبعد إطراقة طويلة رفع رأسه إلى المرأة الصغيرة وقال :

- وكذلك قد احتفظت يا صديقتى بهذا القلب !

فقال وتوردت خفرا :

- نعم ..

ثم استرسلت فى مقالها بلهجة يشوبها المزح والفكاهة ، قالت :

- وماذا غير ذلك تحمله إلى من أقاصى الأرض ؟

فأجاب رالف كرانفيلد ناطقا بالكلمات المقدرة المحتومة التى جرى بها القلم على اللوح فى الأزل :

- لقد جئت أحمل إليك قلبا متعبا منهوكا ، فهل لى أن ألقى عليك أثقاله وأعباءه ؟

فأجابته قائلة :

- هذه الآية التى مازلت أحملها منذ عهد بعيد هى آية القبول والرضى .

فصاح « كرانفيلد » وضم الآنسة إلى صدره :

حييتى « فيث » ! حييتى « فيث » ! .. لقد فسررت لى حلمى الغامض المبهم ، ذلك الذى طالما أضناني وأضناني !

وذاك هو الواقع ، لقد استيقظ الرجل أخيرا من أضغاث أحلامه ، وقد أصاب

تأويلها .

فأما الكنز الدفين فذاك ما أودع الله أحشاء الثرى من جزيل خيراته وبركاته ،
وسبيل استخراجيه هو الزراعة والفلاحة ، وما ذلك الكنز عليه ببعيد ، وكيف
وإنما هو بفناء بيته تشير إليه تلك اليد البادية على الشجرة فوق لفظة « احفر »
التي كان قد نقشها بمبراته في بعض أحلام أمانيه .

وأما الملك والإمارة والدولة والسلطان والزعامة ، فذاك سيطرته على صبيان
القرية وولايته على نفوسهم وأرواحهم بحسن السياسة والتدبير والرعاية .
وأما الغادة الخيالية فلقد انتشعت عنها سحب أوهامه ، فإذا هي رفيقة صباه
وحداثته « فيث إيجرتون » .

فياليت كل هائم في أودية الخيال ، وكل جامع في أعنة الوهم ، وكل طامح
في شعاب الباطل ، وكل متعلق بأسباب المنى الخداعة ، يفيق من غمرته ، ويتنبه
من رقدته ، ثم ينظر حواليه فيرى أن بغيته المقصودة ، وأمنيته المنشودة ، تقيم
منه على كذب ، بمنال يديه ، ومطرح ناظره .

فطوبى لمن هداه الله إلى حل اللغز وفك الطلسم ، دون أن يجشم نفسه عناء
السفر البعيد ، والجهد الجهد ، فذلك الموفق السعيد !

السامر

روى أنه كان ببعض الأقطار الفارسية ملك يدعى فضل الله وكان حسن المذهب محمود السيرة يعيش على أتم وثام مع زوجته الحسنة الأميرة زمرد . ففى ذات يوم قدم على بلاطه درويش من فرقة المتصوفة حديث السن له فطنة وذكاء وظرف وأدب فأقام أياما بين الحاشية والبطانة ، استطاع أثناءها أن يجذب القلوب ويفتن الأكباب برقة شمائله وحلاوة ظرفه وحسن حديثه ، فتمى خبسه إلى الملك فتاقت نفسه إلى رؤيته وسماع حديثه ..

ولما مثل ذلك الدرويش أمام الملك بحثه فوجد ما شاء علما وأدبا ودهاء وأربابا ، إلى ذكاء وحدة وحصافة وحكمة ، وتجربة وحنكة ، وألقى حقيقة الرجل فوق ما كان يسمع بأضعاف ، ورأى من عجائب محاسنه ما تعنى به الأوصاف ... وأستكبر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صستر الخبر

فقرب الملك مجلسه واختص به من دون الندمان والسمار ، وشغل به عن جميع الوفود والزوار ، ثم عرض عليه أسمى ما لديه من مناصب الدولة ومراتب الإمارات ، فأبى معتذرا بأنه قد عاهد نفسه على أن لا يقلد عملا البتة لإيثاره الحرية على كل ما عداها ..

فازداد الملك به إعجابا وتحفيا وإكراما ..

ولما كانا يلهوان بالصيد ذات يوم فى إحدى الغابات وقد انقطعا عن الحاشية والأتباع ، أنشأ الدرويش يقص على الملك حديث أسفاره وأخطاره فقال فيما قال إنه كان مرة فى جزيرة من بلاد الهند الشرقية فصاحب بها رجلا برهيا من الواقفين على أسرار الطبيعة والغاز الكائنات ، قال « وشاء الله أن تكون وفاة ذلك البرهمي بين ذراعي ، فلما جاءت سكرة الموت أوما إلى أن أصغى إليه ، ثم أفضى إلى بسر من أسرار الأسرار ، وأخذ على عهد الله وميثاقه أن أكتمه ما جيت »

قال الملك على سبيل الحدس والتخمين :

« لعله صناعة الذهب من المعادن الخسيسة »

قال الدرويش :

« كلا ، بل هو أعجب من ذلك وأغرب ، أتدري ما هو ؟ هو إحياء جثة ميتة بنقل روحى إليها »

وبينما هما فى ذلك سنج لهما ظيى فرماه الملك فأصماه ، ثم أقبل الدرويش فقال له دونك جثة هذا الظيى فأرنى آيتك ، فلم يك إلا كلمح الطرف حتى خرج الدرويش من جسده فغادره جثة هامدة ملقاة على الثرى وانسل فى جثة الظيى فأحيها بروحه فأنهضها فإذا الظيى حى يتنزه مراحا ويتوثب ..

يصطلى جمرة النهار ويلهو بالرخامى وحلقة السلام

ويرعى الأعشاب والأكلأ ماشاء ، وبعد برهة خر إلى الأرض جثة هامدة ، وفى الوقت نفسه شوهد جسد الدرويش يتحرك وبدت عليه دلائل الحياة ثم نهض أصبح ما كان وأنشط ، فدهش الملك من هذه المعجزة الخارقة ، وأقسم على الدرويش بكل عزيز عليه إلا ما لقته هذا السر العظيم ، فأبى الدرويش بادئ ذى بدء ولكنه ما عثم أن أذعن ثم لقته السر وما هو إلا كلمة بالسريانية .

وأراد الملك أن يجرب السر لتوه ولحظته ، وكانت جثة الظيى لا تزال طريحة على الصعيد ، فعمد الملك نحوها وتلا الكلمة فلم يك إلا كخطف البرق حتى انتقلت روحه إلى جثة الظيى وهوى جسده إلى الأرض ميتا .

وإذ ذاك أقبل الدرويش الخائن على جثة الملك فنقل إليها روحه ، وتناول قوس الملك فسدد سهمه إلى الظيى (المشتمل على روح الملك) يريد إعدامه ، حتى إذا خرجت روح الملك من جثة الظيى ثم لم تجد جسما تأوى إليه ذهبت بطبيعة الحال إلى عالم الأرواح ، وهذا هو الموت بعينه ، وعندئذ يصبح الدرويش هو الملك ، ولا يفتن أحد ما إلى الحقيقة إذ أنه يقتص جسده الملك وصورته فيعود إلى البلاط ويجلس على العرش ويحمل الصولجان ، ويقبض على أعنة الدولة ويتصرف فى شئونها كما شاء له الأمر والنهى والعزة والجلال .

نقول سدد الدرويش السهم إلى الظيى ورمى ، ولكن الظيى راغ من السهم وذهب على وجهه فى الغياض والآجام .

وعاد الدرويش فى شخص الملك إلى قاعدة مملكته بترنح طربا ويميس تيهـا وخيلاء ، فتناول الصولجان وتبوأ أريكة الملك السابق وافترش فراش زوجته .

ولكى يأمن عدم زوال هذا الملك المغتصب والتاج المستلب ، أصدر أمره إلى الرعية بإعدام كل ما تحويه الآجام والغابات من الظباء ، حتى يهلك فى جملتها ذلك الظبى الذى يشتمل على روح الملك الحقيقى ، ولكن ذلك الملك أفلت من سهام الرماة إذ نقل روحه عن جسد الظبى إلى جنة بلبل ميت كان قد أبصرها ملقاة على الأرض عند أصل شجرة .

وفى هذا الشكل الجديد طار إلى بستان قصره ، حيث كان الدرويش يعيش على أسعد حال مع الملكة من حيث لا تشعر هذه الزوجة الصالحة أنها قد ابتلنت خدرها لروح غير روح زوجها .

هنالك وقع الملك التقمص جسد البلبل على فنن آيلة مطلة على نافذة مقصورة الملكة ، وشرع يغرد بأشجى الألحان حتى هز برنين سجعه أركان المكان فاستهوى الملكة واقتننها بأعاجيب أناشيده ، ولكن سرور الملكة أحزنه وغمه ، وكان يريد أن يهيج أحزانها ويثير أشجانها ويستدر رحمتها وحنانها .

ولبث ردحا من الزمان يحببها بألحانه صباح مساء .

واستدعت أحد الخدام فأمرته أن يبذل ما فى وسعه لاقتناص ذلك البلبل ، على أن البلبل (أى الملك) لم يحوج الخادم إلى بذل أدنى مجهود ، بل وقع فى يديه طائعا مختارا منتهزا هذه الفرصة للدنو من الملكة زوجته ، ولما عرض عليها وكانت طائفة من وصائفها معها ، عجب الكل لما رأيته ينفر منهن جميعا إلا الملكة ، فلقد سقط عليها وجعل يتمسح بها ويتشبث بأردافها ثم اختبأ فى جيبها ، فسرت الملكة بما أبداه من فرط التحبب إليها والتحدث عليها ، دون غيرها من الحضور ، وأمرت به أن يجعل فى قفص من الذهب مفتوح التوافذ فى غرفتها .

وكذلك جعل البلبل يبدى للملكة من أساليب الملاطفة والمطايبة أقصى ما تسمح به خلقته الجديدة ، وجعلت الملكة تقضى الساعات الطوال فى مداعبة بلبلها وملاعبته ، ووجد البلبل - أعنى الملك - سلوة وعزاء فى حاله هذه مع الملكة ، بل وجد نوعا من السرور والغبطة لولا ما كان يكدره أحيانا من دخول الدرويش

عليها في تلك الأوقات ، وما كان يراه من مغالته الملكة وتجميشها بمشهد منه وسماع .

وكان صاحب العرش (الدرويش) كثيرا ما يحاول استجلاب مودة البلبل ، ولكن بلا جدوى ، إذ كان كلما ازداد تقربا من البلبل ازداد ذلك منه تجافيا ونفورا ، بل ربما أوسعه نورا بمنقاره ، وضربا بمخبله .

وكانت الملكة زمرد كلفة بكلب مستأنس يبيت معها في حجرتها ، فاتفق أن مات هذا الكلب ذات ليلة وأهل القصر نيام أجمعين ، فلما أبصر البلبل هلاك الكلب تأقت نفسه إلى أن يتقمص جثته ومالبت أن صنع ذلك ، فلا تسل عما أصاب الملكة من فرط الكمد والجزع عندما استيقظت صباحا فرأت حبيبها البلبل ميتا ، فاستدعى الملك (الدرويش) وصائفها وأقبل معهن يعزيها عن البلبل ويسليها عن مماته ويقنعها بخطئها في تعذيب نفسها حزنا على هلاك طائر حقير ، ولكن عبثا حاول وحاولن .

وظفقت الملكة تيكى وتنتحب انتحابا أذاب كبـد الدرويش ، حتى وعدما أن يرد الروح إلى بلبلها ، فعند ذلك كفكفت الملكة من غرب مدامها وسألته مندهشة كيف يكون ذلك وأنى له بإحياء الموتى ، وأى امرئ يستطيع هذا . وهنا انطرح الدرويش على مقعد وأرسل روحه في جثة البلبل فعاش بإذن الله المحيى المميت المبدئ المعيد ، وبلغ العجب والاندهاش والذهول من الملكة أقصى مبلغ .

وكان الملك يشاهد كل ذلك من عيني الكلب الذى كان قد تقمص جثته ، فما كاد يصير الدرويش قد خرج من جسمه (أى من جسم الملك الحقيقى) حتى خرج هو من جثة الكلب كالسهم المارق فدخل فى جسم نفسه قائلا « هذه بضاعتنا ردت إلينا » .. ثم هجم على البلبل المشتعل على روح الدرويش فكسر عنقه ، فجددت الملكة عند ذلك عويلها ونحيبها ولكن زوجها الملك مالبت أن أطلعها على حقيقة الحال من المبدأ إلى النهاية مؤيدا قوله بيرهانيين ناصعين :

١ - جسم الدرويش الذى كان لا يزال منطرحا على الصعيد بالغابة .

٢ - الأمر الذى كان أصدره الدرويش بإعدام جميع ما بالبلاد من طياء .

وأراد الملك أن ينعم بزوجته بقية العمر فى رغد وصفاء ، ولكن ما أصابها
 من شدة الحزن لما قضاه الدرويش معها من أوطار محرمة عن جهل منها بالحقيقة
 قدح فى أحشائها ، وأذاب سويداء قلبها ، فجعلت تضى وتضوى فى خفوت
 وسكوت ، وظلت روحها الطاهرة الكريمة تذوى وتذبل على كر الأيام والليالى
 كالزهرة الغضة اصطلمحت عليها الأعاصير والعواصف ، وتتساقط كالشمعة يتحيفها
 اللهيب حتى انطفأ سراج حياتها وانتقلت عن معالم الأشباح إلى عالم الأرواح .
 وجزع زوجها عليها أشد الجزع ولبس الحداد ، ولم يطل بعدها بقاؤه ،
 فعدت بينهما ليال ارتحل فى نهايتها إلى جوار زوجته . .
 وإن تصب أحدا منا منيته لأبد فى غده الثانى سيتبعه .

صفحة رابعة

إن الذين نشأوا في النعمة والرفاهية قلما يدرون ماذا يلاقى إخوانهم الفقراء من ضروب المحنة والبلاء ولا ما يضطرون إليه من عجيب الحيل والتدابير لاستدراار الرزق من سم الخياط ..

بهذه الفكرة وأمثالها ملء رأسى .. ذهبت إلى أحد المراهين من عملاء والدى المرحوم لاستعينه على محن الأيام ، ولما التقينا أخذنا نتصفح وجوه الرأى ونطرق أبواب الحيلة ، إلى أن سنحت له فكرة حمدها وحمدتها واستقر عليها رأيه ورأى .. قال ه هلم معى إلى إحدى شركات التأمين على الحياة ، فنطلب إليها أن تؤمن على حياتك ، وقد أعلم أن ظاهرك وما يبدو عليك من علامات الصحة والقوة سيخدعهم فيمنحونك مكافأة جسيمة (يأخذها ورثتك بعد مماتك) ثم لا يأخذون منك سوى مبلغ زهيد جدا ، أتولى عنك دفعه كما أعلم أن باطنك خلاف ظاهرك وإن ما قد اعتدته وألفته من إدمان المسكرات والانهماك فى الشهوات لن يهلك فى هذه الدنيا إلا أمدا قصيرا . فإذا حان أجلك ولا أرى ذلك بعيدا - أرثك فى المكافأة بموجب عقد تحرره لى بهنا ، ومقابل ذلك أنقذك مقدما نصف هذه المكافأة تفرج بها كرتك وتكشف غممتك وتقضى البقية الباقية من عمرك فى رغد ورخاء ، أما أنا فحسبى أن تؤول لى المكافأة بعد وفاتك ه ..

وعلى ذلك توجهنا إلى مكتب شركة من تلك الشركات فألقينا به طائفة من الأشقياء المتكويين أمثالى من المساهمين بأعمارهم المضارين بحياتهم استجلابنا للآرزاق والأقوات ، وكانوا جميعا أحراضا هلكى محطمين مضطحين متهمدين قد أمعنت فيهم العلل والأمراض وهم يحسبون أنهم أبقي على الأيام من الأعلام والأطواد ، وأشد بنية من قوم عاد ، وأنهم فى هذه الدار مخلدون ، ومنتظرون إلى يوم يبعثون ..

وعينا كانت لجنة الكشف تحاول إقناعهم أنهم بمنزلة بين الأحياء والأموات ،

وأنه يوشك أن ينعمهم النعمة ، هؤلاء كان نصيبهم من الشركة الرفض البات .
ثم جاء بعد ذلك رجل بادن صلب متين تحاله عملاقا من العملاقة يخيل إليك
أن عزرائيل سيشتبك معه فى معركة هائلة ، الله وحده يعلم أيهما يخرج منها
ظافرا ..

قال له رئيس لجنة الكشف :

« كم سنك ؟ .. »

« أربعون .. »

« الظاهر أنك رجل قوى .. »

« أنا أقوى رجل فى أرلندة .. »

« ولكنك مريض بالنقرس .. »

« كلا ، بل بالرومانزم ، الرومانزم فقط ليس إلا ، وأيم الله .. »

« فى أية سن مات أبوك ؟ .. »

« مات صغيرا ، ولكنه لم يميت حتف أنفه ، إنما هلك فى مشاجرة »

« ألك أعمام على قيد الحياة ؟ .. »

« كلا ، لقد هلكوا جميعا فى مشاجرات .. »

« أى ضمان لنا أنك لن تهلك أنت أيضا فى بعض المشاجرات كما هلك أبوك

من قبل وأعمامك .. »

« لا تخافوا من هذه الناحية ، إنى ألين الناس جانبا وأرقهم حاشية إلا إذا

سكرت وذلك ليس فى كثير من الأحيان .. »

« وكذلك تشرب أحيانا ياسيدى ؟ .. »

« ثلاث زجاجات من الوسكى بكل سهولة .. »

« هذا خير سىء يا صاحبى ، ومن ثم تلك الحمرة الشديدة فى وجهك وعلى

الأخص فى أنفك ، وأراك بعد عرضه للقالج وللموت المفجئى »

« لا صحة لقولك .. أما وجهى الأحمر ، فلقد ولد معى حين ولدت ، وأما

ما تتبأه لى من قصر أجلى فمهما قصر فلن يقل عن مجموع ثلاثة أعمار من

أعماركم .. »

« ولكن ثلاث زجاجات من الويسكى .. ! »

« اطمئنا من هذه الوجهة ، فلأعدنكم أنى لن أشرب أكثر من زجاجتين فى اليوم من الآن فصاعدا . هذا ولقد عزمت على الزواج والعيشة الهادئة المعتدلة .. »
وبعد المداولة أقرت اللجنة قبوله بشرط أن يدفع مبلغا إضافيا على سكره ومشاجراته .. »

وهنا جاء دورى ، وبينما كان صاحبى المرابى يسوقنى إلى اللجنة عاق مسيرى دخول سيدة صغيرة آية فى الجمال على ثياب الحداد فأحدث جمالها فى قلوب الحاضرين حتى أعضاء اللجنة ذوى القلوب الحجرية الجلمدية أبلغ أثر ، فسألها الرئيس على الفور أن تأخذ مجلسها بإيزازهم على المائدة وتناول مسألتها وما هى إلا أنها تعرض نفسها على اللجنة وتؤيد حقها فى تقاضى العشرين ألف جنيه التى كان زوجها المتوفى أمن حياته عليها ..

فقلت فى نفسى ..

« فرصة سعيدة ، إن أضعتها كان الإعدام أقل ما تستحقه ! .. فرصة هائلة ! ..
عشرون ألف جنيه ذهب ، وامرأة من أجمل نساء العالمين ، لكن أضعتها كان الحمار أرجح منك عقلا .. »

وقال رئيس اللجنة :

« صفقة رابحة يا سيدتى تلك التى باء بها زوجك المتوفى ، لقد أخبرته أنه رجل مسن عليل لا يؤمل أن يعيش طويلا ، ولكنى ما حسبت قط أن أجله سيوافيه بمثل هذه السرعة .. »

قلت فى نفسى :

« رجل مسن عليل ، لاجرم أن السيدة لابد أن تتزوج قريبا ، فتلهفت أشد تلهف على أن يجرى امتحانى أمامها لتسمع من حسن شهادة اللجنة عنى ما يرضنى فى نظرها » وأسعدنى الحظ بهذه الأمنية ، فاضطرت السيدة إلى البقاء مكانها ريثما تستحضر بعض المستندات اللازمة لإنهاء مسألتها ، وفى خلال ذلك تقدمت إلى اللجنة بمنتهى الجراءة ..

وقال صاحبي المراهب :

« اسمحوا لى أيها السادة أن أقدم إليكم المستر - صديقى الحميم الذى يريد التأمين على حياته ، وقد ترون أنه صحيح البنية معافى فى بدنه وليس من صف المشرفين على الهلاك .. »

فصوب الأعضاء إلى نظرة ارتياح ، ولكن الذى سرنى وأبهجنى أن السيدة الحسنة فعلت كذلك ..

وقال أحدهم :

« أراك عريض المنكبين متين الألواح ، وأحسب رثيك سليمتين »

وقال آخر :

وأراك شديد الوطأة ثابت مكان القدم لا يخشى أن تصرع فى معاركة »

وقال ثالث :

وأراك مضبور الخلق مدمج المفاصل ، ما بك من ترهل ولا استرخاء مما يعترى مدمنى الشراب .

وأنست أثناء هذا التقرير والإطراء أن السيدة كانت تبسم وقد هت أن تضحك مرتين أو ثلاثا ، فاعتبرت ذلك منها كابتهاء للمناورات والمناوشات معى. ولما أمرت أن أذهب إلى الغرفة المجاورة للكشف الطبى تافت نفسى إلى أن أسأها انتظارى حتى أعود ، ولم ألبث أن رجعت بأحسن شهادة على جودة صحتى وقرأها الرئيس بصوت جهورى وهنأنى الأعضاء على نجاحى الباهر وفهقهت السيدة ضاحكة ، وانتهت مسألتى ومسألتها فى وقت واحد ، وهبطت السلم وأنا على أثرها .

وقال لى صاحبي المراهب .. « أيان تسرع كمن أصابه جنون ؟ .. » .

قلت « أشيع هذه السيدة إلى مركبتها » .

ولقد شيعتها فعلا إلى باب المركبة ، ولما تبوأأت أريكتها أوامأت برأسها أرق تحية وأرشفها وضحكت إلى ثانية ، وسألت الخادم أن يسوق إلى البيت ..

قلت « وأين البيت يا جون ؟ » :

قال الخادم « رقم .. شارع .. يا سيدى .. » ثم انطلق بالمركبة ..
وسرت والمرابى ، كلانا ممن فى شباب أفكاره ، سادر فى بيداء أحلامه
وأوهامه ..

وقال لى أخيراً :

« فيم تفكر يا فتى ؟ .. »

« أفكر فيك هل رحمت صفتك معى أم خسرت ؟ .. »

« وكيف ذلك ؟ .. »

« لأنك ما دخلت معى فى تلك المساومة ولا غرمت لى ما ستقدمه لى حر
مالك إلا ثقة منك بقصر عمرى وقرب أجلى من جراء إدمانى الشراب وانهماكى
فى الشهوات والملاهى .. ولكنى أحسب أنه قد خاب ظنك وطاش سهمك ،
فإنى من الآن فصاعدا سأعيش مع زوجتى أقوم عيشة وأتقاه وألزم من الصلاح
والتقى مذهبا تضمن معه العافية والسلامة وطول الحياة » ..

« زوجتك ؟ .. ومن عسى تكون زوجتك ؟ .. »

« تلك السيدة الحزينة التى انطلقت على مركبتها آنفا . قد تضحك سخرية
منى ومن قولى ، ولكن إن شئت فراءنى بمبلغ المكافأة التى ستقبضها بعد وفاتى
مقابل المبلغ الذى أستحقه منك الآن - على أن زوجتى الجديدة هذه ستصلح من
شأنى وتطهرنى من مدانس مآثمى وتسلك بى من النزاهة والاستقامة المسلك
المؤدى إلى السلامة وامتداد الأجل » ..

« قبلت رهانك » .. وفرح بما خاله مضاعفة لأرباحه على حسابى ..

وعلى هذا مضينا إلى أقرب قهوة فحررنا عقدا بذلك .. قاتل الله الحياء
والخجل ، إنه العقبة الكؤود فى سبيل النجاح ، والسد المنيع دون مطايب هذه
الحياة ومباهجها ، وأقسم ما رأيت أمراً قط استطاع مع حياته وخجله أن يخرج
من ضيق الشقاء إلى فسحة النعيم ولا من ظلمة النحس إلى ضياء السعادة ، أما
أنا فمن أجل نعم الله على أنه جردنى من كل أثر من الحياء وعرانى من كل ما يسمى
أو يتوهم خجلا ، وعلى هذا ألفت نفسى فى غد ذلك اليوم واقفا بكل برود
على باب تلك السيدة ، بل ألفت نفسى أتناول حلقة الباب وأقرعه بلا رقة

ولا تلتطف ، وبلغ من فرط انشغال ذهني بالتفكير فيما كنت أنتظره من ثمرات هذا الزواج المؤمل من المناعم والملاذ - أني ألفتيتي في حجرة الاستقبال دون أن أكون قد هيأت من الكلام ما أقدمه معذرة عن فضولي وتطفلي وهجومى الوقح المستكر .

وبينما أنا في انتظار السيدة وقد كاد فؤادى يذوب رقة وصباية لجمال ما كنت أشيده حولي من قصور الأمانى البللورية وسراقات الأحلام السندمية إذ فتح الباب ودخلت الحسنة ، وكان استقباليها لي ينم عن رقة وأدب يشوبهما شيء من الحشمة والانقباض. وأنست أنها إما أن تكون قد نسيتني أو أصرت على إنكارى ، ولم أكن أعددت نفسى لثل هذا السلوك منها ، فعراني ارتباك وحيرة بالرغم من جرأتى الغريزية ، وقلت فى نفسى لقد أخطأت إذ تصورت ضحكات السيدة من كلمات لجنة الكشف فى تلك الظروف المضحكة حركات مقصودة منها تريد بها مناوشتك ومجادبتك على حين أنها لم تقصد إلى شيء من ذلك ، وجال بخاطري أن أعتذر بأنى كنت أريد منزل سيدة غيرها فأخطأت المرمى ثم أنسحب . ولكن هذه الفكرة ما لبثت أن طاحت أمام جمالها الباهر وحسنها الفتان وقلت فى نفسى أمجنون أنت حتى تتقهقر بلا موجب .

وقلت يمين الله أبرح ههنا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

حقا ما كان شيء قط ليخرجك من ههنا دون ضرب النعال .. وقلت ودمى يغلى غليانا .

« سيدتى ، لقد كان بين أبى وزوجك المرحومين أمتن صلاة المودة والإخاء قبل أن يرحل بى أبى إلى جزائر الهند الشرقية ، وقد تم قرانك بزواجك المرحوم وحانت وفاته قبل عودتى ، وقد مات أبى بدار الغربه وأوصانى وهو على سرير الموت أن أجدد مع زوجك صلوات الوداد لدى عودتى ، ومنذ عدت لن آل بختا عن زوجك إلى أن علمت ما كان من أمر اقترانه بك ثم وفاته ، وقد جئتكم اليوم ومقدما نفسى كأقل خادم من خدامك لأدخر جهدا فى خدمتك وقضاء كل ما عساك تكلفيتنى مضحيا فى سبيل ذلك كل ما أملك ولو كان روحى الذى بين جنبي »

ولا تسل عن فرط دهشة السيدة وتعجبها من مقالى .
وقالت إنها لم تسمع قط من زوجها أدنى إشارة إلى تلك القصة ولا كان منه
قط أنه ذكر اسم والدى ولا كنية ولى عهده « وليم هنرى توماس » (يعنى أنا)
طول مدة حياته معها .

قلت « قد يكون ذلك حقاً يا سيدتى ، بيد أنى لست مؤاخذاً زوجك المرحوم
على إهماله أن يذكر لك ذلك الحديث ، ولقد كان له من ذهول السن العالية
والمرض المزمن أوضح عذر وأبينه ، ولقد أعجلته المنية أن يسعد خلاته وإخوانه
بتقديمهم إلى أجمل نساء هذا العالم » ..

وكذلك استطعت بفضل جرأتى ولباقتى أن أقف السيدة بمنزلة بين الشك
واليقين وهذه خطوة فسيحة ونتيجة حسنة إذا نظرنا إلى ضعف الأساس الذى
أبنى عليه ونزارة المادة التى أنسج منها ، ولا جرم فلقد كنت كمن يحاول أن
يشيد فوق صفحة الماء إيواناً ، ويحوك من خيط العنكبوت طيلساناً .

ولما فرغت من هذه الحملة المظفرة الميمونة وأخذت أول حصن من الحصون
الأمامية رأيت أن أوجه قوتى فى طريق آخر من طرق المؤانسة والمداعبة ، والحرب
فنون ، فأجلت عينى فى أنحاء الغرفة فأبصرت على بعض الجدران صورة « أبولو »
إله الجمال ، فقلت :

« لقد افتن المصور أيما افتنان ، وأحسن غاية الإحسان ، بيد أنه لو كان زاد
قليلاً فى عرض المنكين لكان أروع لصورته وأحرى أن ينال عليها من شركات
التأمين مبلغاً جسيماً لو شاء أن يتقدم بها إليها »

وقصدت بذلك إلى تذكيرها بما كان قاله عنى أحد أعضاء تلك الشركة
بمسمع منها إذ قال لى « أراك عريض المنكين »

ولقد أصاب سهمى المرمى فتبسمت

كأنما تبسم عن لؤلؤ منضد أو برد أو أقاح .

وذلك ما كنت أبغى ..

وكذلك بدد بريق ابتسامتها ما كان لا يزال مخيماً على قريحتى من سحب
الوحشة وظلمات الاحتشام ، فانطلقت من كل قيد ، وجريت من ميدان البلاغة

فى كل مضمار . وتدققت من حومة الفصاحة فى كل تيار ، وجنيت من كل
بستان إيناس ثماره ، وحكيت من كل روض إطراب قمره وهزاره ، منتقلا من
جد إلى هزل ومن حزن إلى سهل ، بكلام يمتزج بأجزاء النفس رقة وبالهواء لطافة
وبالماء عذوبة ، وملح كنواث السحر ، وفقر كالغنى بعد الفقر .

وأنتدتها فى ثنائيا محاضرتي ، وغضون محاورتي ، نيدة من قصيدة مستحدثة
لشاعر عصرى ، وكذلك انقضت ثلاث ساعات دون أن يتطرق إلينا الملل ،
ونسيت السيدة ما كان قد غشيني أول التقائنا من سحب الريبة والظنة وكانت
تجاذبني أهذاب الحديث ببراعة توازى براعة حسننا الفائق .

ولما استأذنتها فى الزيارة غداة الغد أجابت بالقبول .

فمضيت إلى منزلى أسعد الناس طرا وأشدهم حرصا على حياته ، فجعلت
أنظر إلى مواطئ قدمي خيفة أن أسقط فى إحدى بالوعات المجارى العمومية .
وكلما هممت أن أعبر الطريق أخذت أتلفت يمنة ويسرة خشية المركبات
والسيارات، ولما وصلت إلى المنزل ألقيت رسالة من صديقي المرابي يخبرني أنه قد
حصل لى على وظيفتين إحداها باش شاويش « فى فرقة موجهة إلى جزائر الهند
الغربية والثانية مبشر فى « نيوزيلنده » فحررت إليه أنه سيان عندي أن أموت
ضحية الحمى الصفراء أو فريسة أكلة اللحوم من هجج أستراليا ، ولكن لدى من
الأعمال الهامة ما يمنعنى الآن من قبول أية الوظائفيتين .

وفى اليوم التالى حظيت بلقاء السيدة وصافحتنى بناتها اللدنة الرخصة وابتسامة
الآليف لأليفه ، وسلخت بياض النهار معها بين المعجب المطرب من شهوات
السمع والبصر من لؤلؤ يجلوهم ميسمها الدرى . ولؤلؤ يساقطه حديثها الشهى :

ظللنا بهذا الديدن اليوم كله كأننا من الفردوس تحت خلود

وتوالت على هذا الحال أيام عديدة إلى أن دخلت عليها يوما فألفيتها على
خلاف عاداتها مطرفة حزينة ، وكانت جالسة إلى منسج التطريز فجلست بإزائها
وقالت :

« يدور بخلدنى أنى قد خدعت خلدا عا شائنا » ..

قلت « بمن ؟ .. »

قالت « من رجل له عندك مكانة عظيمة » ..
« ومن ترين يكون هذا ؟ »
« هو أنت بلا ريب » .
« وما تلك الخديعة ؟ »
« لقد آن أن تصرح لى أن قصتك عن علاقة أليك بزوجى المتوفى والرحلة إلى جزائر الهند الشرقية وسائر الرواية إنما هى محض اختراع وتلفيق » .
فنهضت من مكاني وأهويت إلى يدها فقبلتها ، وقلت :
« سيدتى ، بماذا يتقرب العاشق المستهام وبماذا يزدلف المحب الودود .
أقيمت حفلة القران بعد أسبوعين من ذلك اليوم .
وحررت إلى صديقى المراسى الرسالة الآتية :
« عسى أن يسرك ما قد آل إليه أمرى من حسن العاقبة وحزيل النعمة ، وإن ساءك أنك قد خسرت الرهان . ولما كنت قد أزمعت أن أقف مكافأة الشركة على زوجتى ، فسأبدل لك من جاهى ومنصبى فى سبيل الحصول على وظيفة تليق بمقامك السامى الرفيع كوظيفة (باش شاويش) فى الفرقة الراحلة قريبا إلى جزائر الهند الغربية ، أو كوظيفة مبشر فى « نيوزيلنده » .
وتفضل بقبول فائق احترامى

حديث امرأة

كان « بيوتر سرجيتش » صديق أسرتنا كثير التردد على دارنا وذلك منذ عشرة أعوام وكنت إذ ذاك فتاة في الثانية والعشرين .

في ذات عشية خرجت وذلك الرجل نقصد مكتب البريد لنتظر هل به رسائل إلينا وكان الجو صحوا صافيا ، ولكننا سمعنا أثناء عودتنا قصفة من الرعد ورأينا سحابة مكفهرة تسرى نحونا ، وكانت دارنا تبدو من وراء تلك السحابة الخالكة بيضاء ناصعة والدوح الياسق كأنه عمدان من الفضة ، وكان الهواء مفعما برائحة المطر ورائحة العشب المحصود ، وكان صاحبي مفعما طربا وجدلا يديم الضحك والكلام هراء ولغوا .

فقال إنه ليرد أن يصادف في طريقه قلعة من قلاع العصور الغابرة ذات أبراج ومعاقل عليها العشب ينمو واليوم تصيح والغربان تعب فتدخلها ونستظل بمحصولها من العاصفة ثم تنزل بها الصاعقة فتهلكنا ونحن محتضنان متعانقان يلفنا الحب من رأسينا إلى قدمينا وجذا تلك من مية يملؤها الحب حياة - ولا يمات في الحب ! وأركض « بيوتر سرجيتش » جواده وهو يصيح :

« ما أبدع هذا الجو وما أروع ! »

وأعداني طربه وسروره فطفقت أضحك إذ علمت أن السماء ستفرقني في الحال بوابل وزبما أخذني البرق بصاعقة

ولما دخلنا ساحة دارنا كانت الريح قد فترت وأخذ القطر يكف على الشرى وأسقف المنازل ولم يكن بفناء الدار إنسان .

فترجلنا وساق « بيوتر » الجوادين إلى الإصطبل ثم مالبت أن عاد إلى وهو يقول ما أشد زمجرة الرعد ، وكان قد قصف قصفة خيل إلى أن السماء من هولها قد انصدعت .

ثم وقف إلى جانبي تحت مظلة الساحة وأطال النظر في وجهي وأبصرت

نار الغرام تتوقد فى لحظه .
وقال :

« اسمعى يا ناتاليا ، بودى أن أضحي بكل عزيز لدى فى هذه الدنيا مقابل أن أقف معك هنيهة فأنظر إليك ، سبحان ربي متشعك . وباريك كيف أبدع مبانك وأدق معانيك »

جل كاسى طينكم صيغته كيف صاغ الطيس لما عجنه
وكانت عيناه ترونان إلى عن طرب واسترحام وكان وجهه شاحبا ، وكانت قطرات المطر تتلأأ على شاريه ولحيته ، وكان تلك القطرات ذاتها كانت أيضا تنظر إلى عن غرام ولوعة
قال « بيوتر »

« إنى أحبك ، أحبك وفى النظر إليك سعادة أى سعادة ! قد علم أن من المحال أن تكونى يوما زوجتى لبعد ما بين منزلتى ومنزلتك بما أنك من عليا طبقات الأرستوقراطية وما أنا إلا موظف صغير - وكيل النيابة .

- ولكنى لا أطلب أن تكونى يوما ما زوجتى ، كلا لست من الحق والضلالة بحيث أطلب ذلك أو أتمناه أو أطمح إليه ، بل كل ما أريده هو أن تعلمى أنى أحبك ، لا تتكلمى لا تجيبى ، لا أريد على كلامى هذا منك ردا ، اسكتى ولا تبالى ولا تحفى بكلماتى هذه وقدرى أنك لم تسمعيها وكل ما أبغى منك أن تعلمى أنى أحبك وأن تسمحنى لى أن أنظر إليك »

فأثرفى وله وهيام أشد تأثير ، فنظرت فى وجهه المتوقد وأصغيت إلى صوته المتقطع المزوج بخفيف المطر، وثبت مكانى لا حركة بى كأنما أصابنى سحر ساحر .

وددت لو بقيت أبد الآبدى أنظر فى عينيه المشرقتين وأسمع حديثه . وقال « بيوتر سرجيتش » : أراك لا تقولين شيئا وذلك ما كنت أبغى ، ألا فاستمرى ساكنة »

لقد شعرت إذ ذاك بمتتهى السعادة ، فجعلت أضحك سرورا وجذلا ثم انطلقت أعلو تحت وابل من السماء مدرارا إلى البيت ، وانطلق يعدو ورائى

يضحك ويتوثب

ثم صعدنا السلم فى جلبة وضوضاء كأننا طفلان لعبان واندفعنا فى حجرة الجلوس نلهث من شدة العدو وقطرات المطر تتساقط من أرداننا - ودهش أبى وأمى إذ أبصرانى على تلك الحال من الضحك والخفة والنزق خلافا لما يعهدانه فى من الوقار والحشمة ، فأخذنا يضحكان أيضا .

انقشعت سحب العاصفة وسكنت الرواعد ولكن قطرات المطر لم تنزل تتلألأ على لحية « بيوتر » وشاربيه ، ولبت ذلك الرجل إلى منتصف الليل على أتم حال من المزاج والطرب يشدو ويترنم بشتى الأناشيد والأغاني ، وتارة يصفر وأخرى يصفق وأحيانا يلاعب كلب الدار ويداعبه ويجاريه حول الحجرة ويسابقه ولما قدم العشاء أكل كثيرا جدا وتكلم كثيرا جدا .

وجعل يقول إن الخيار الغض الطرى إذا أكل فى الشتاء كان له فى الفم أرج الربيع ورياه .

ولما ذهبت إثر السهرة إلى الفراش أسرجت شمعة وفتحت النافذة على مصراعها وأحسست أن شعورا مبهما غير محدود ولا معهود قد استولى على أنفءا روحى ، وتذكرت أنى حرة طليقة متمتع بالصحة والعافية ، بالجاه والمنصب والثروة . ثم مستتى نفحة من الهواء تحمل الطل والندى سرت إلى من الحديقة فانقبضت فى ثنايا الفراش وأخذت أبحث من أعماق نفسى أكنت أحب « بيوتر » أم لا ، وأخذنى النوم قبل أن أحل هذا المشكل . ولما انتهت فى الصباح ونظرت على فراشى لمعا من ضياء الشمس وظلال الشجر استعادت ذاكرتى كل ما كان من حوادث الأمس ، وأشرق لناظرى صورة الحياة حسناء مونة مملوءة بأفانين الجمال والجلال والروعة والبهاء مثرية من ضروب الملح والتحف والمتع والمملكات ، ساحرة فتانة ، فلبست ثيابى وانطلقت أترنم إلى الحديقة .

وماذا جرى بعد ذلك ؟ لاشيء ! انتقلنا فى الشتاء إلى المدينة (موسكو) وتركنا جارنا بيوتر سرجيتش « فى القرية يزاو أعمال وظيفته ، وكان يزورنا من آن لآخر ، وأحيانا يذكر لى الحب ، ولكن أحاديثه الغرامية كانت فى المدينة أقل تأثيرا فى نفسى منها فى الريف حيث كنا فى المدينة أشد شعورا بالفارق

العظيم والحجاب المنيع الحائل بيني وبينه فلقد كنت ذات منصب وثرورة وكان فقيرا - ابن قسيس وموظفا صغيرا ، وجعلنا نرى هذا الحائط الحائل بيننا وكأنه على أقصى غاية من الضخامة والارتفاع والسماك والمناعة ، لقد أعلم ، أنه ليس من حائط مهما عظم وضخم إلا وفي الإمكان اختراقه ، ولكن عشاق هذا العصر مجردون من الإقدام والبسالة ، عراء من الهمة والعزيمة ، صفار من الفتك والبطولة - مكاسيل متبلدون ضعاف أنكاس لا قبل لهم باقتحام العقبات وركوب الأهوال ملثون بالتشاؤم إلى القول أميل منهم إلى الفعل ، وإلى النقد والتفلسف أسرع منهم إلى الكفاح والجهاد ، ويهتمون العالم بالسخافة وقد نسوا أن انتقاداتهم لا بد أن تصبغ على كثرة التكرار سخيفة .

لقد صادفت على طريق الحياة رجلا برا كريما طيب القلب أحنى حبا يقرب من العبادة ولاح لي كوكب السعد وأزهرت من حولي جنة الأمل ذاتية القطوف في أكمامها ثمر الأمانى يانعا ، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من السعادة وكنت بها قمينه ، ولكنى أضعت الفرصة فعادت غصة

كم من مؤخر فرصة قد أمكنت لغد وليس غد لها بمئات

حتى إذا فأت وفات طلابها ذهبت عليها نفسه حسرات

لقد مضيت على طريق الحياة مغمضة العينين عمياء عن مواطن المنفعة ومكامن السعادة غافلة عن فرص النعم والعطايا جاهلة بنفسى وقدرى وقيمتى لا أدري ماذا ينبغي أن أنتظره من هذه الحياة ولا ماذا يجب على أن أطلبه وأحصل عليه لنفسى

وكرت الأيام والليالي وتتابعت السنون وتعاقت الحقب والأزمان . ومرت بي صنوف الناس يتعمون بمحباتهم وموداتهم المتبادلة ومرت بي الأيام المشرقة والليالي المتألقة ، وناح الليل المغرد صداحا ، وفاح الترجس الغض نفاحا . مضت كل هذه المباهج والمناعم والمطارب مر السحاب وما قدرتها حق قدرها ولا استثمرتها حق استثمارها . مضت وما خلفت أثرا وزالت وكأنها لم تكن .

لقد مات أبى وكبرت وذهبت نضرة الشباب ، وكل ما كان يسرني ويطربنى ويملؤنى أملا - ذهبت بمتعها تلك الليلة المهدودة التى فاتحنى فيها ذلك الرجل

حديث العرام وكاشفنى سر الصباية - ذهبت وملاذها من حفيف القطر الواكف
ولمع البرق الخاطف وهدير الرعد القاصف وشكوى الهوى ، ونجوى المنى
ومستعذب الأحلام ، ومستلذ الخواطر والأوهام - تقضى كل ذلك ولم يبق منه
إلا اسم بعد جسم ، وذكريات تجول فى جوانب الوهم ، وأصبحت لا أبصر
أمامى سوى صحراء مقفرة ليس على أرضها شبح من الأنس ، ولا فى سمائها من
الشهب إلا كواكب النحس .

دقة على الباب ! من الطارق ؟ هو بيوتر سرجيتش .
إنى إذا نظرت الشجر عاريا حزينا تذكرت الشتاء وتذكرت كيف كان مورقا
طريفا فى الصيف ، وكيف كان يومئذ يحبنى طلقا مبهجا ضاحكا
كأن طائرته نشوان من طرب والغصن من هذه الأعطاف نشوان
هاج بى الحنين والذكرى ، وصحت : واحسرتاه ! وكذلك إذا رأيت إنسانا
كان لى خليلا أيام الصبا والحدائث وقضيت معه زهرة الشباب ، عراني الأسى
وملكنى الطرب والحنين وصحت أيضا : واحسرتاه !
وكان « بيوتر سرجيتش » بفضل مساعى والدى قد نقل إلى محاكم موسكو
منذ أعوام، وكان قد أسن وخطط رأسه المشيب وقد كف منذ حين عن إعلان
حبه وشكوى غرامه، وكف أيضا عن أماريمه وهزلياته وضحكه ولعبه، وأخذ يسأم
أعمال وظيفته ويمقتها، وتولاه انقباض وهم وكآبة وكأنه أفاق من سكرة الشباب
وصحا من أحلام الصبا والصباية، وكأنما انقشعت عن عينيه غشاوة الغرور فتجلت
له الحياة مجردة عن ثياب خدعها عارية من زخارف زورها وباطلها فصح عليه
قول القائل :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى تياب صديق
فانصرفت من الدنيا حبال أمله ، وانفصمت من الحياة عروة رجائه
رجع اليقين مطامعى يأسا كما رجع اليقين مطسما مع المتلمس
فهاجر الدنيا وحرم على نفسه التمتع بمحاسنها الكاذبة ، والهيام فى أثر زخرفها
وزينتها ، وكف عن محاولته اجتناء ثمرها ، واختلاب درها .

دخل الغرفة فحياتي في خفوت وجلس إلى الموقد صامتا حزينا .
وتحيرت لا أدرى بماذا أفاتحه وماذا أقول له وبعد برهة طويلة قلت :
« ماذا لديك تحدثني به وماذا تطلب إلى ؟ » .

قال « لأشياء » .

وجعل شعاع النار يتلاعب حول وجهه الحزين . تذكرت الماضي فعرنتي هزة
ورجفة وكادت شعبة من مهجتي تقع ، وأحسست كأن كبدي تتصدع ، ثم خنقتني
العبرات فبكيت بكاء غزيرا وتوقدت على أحشائي حرقة شديدة حزنا على نفسي
وعلى ذلك الرجل .

ثم ندمت أيما ندم على إضاعتي ما كان قد سنج لي من فرص العيم والسعادة ،
وتلهفت على الماضي لهفا كئارا الحريق المضرم

لهفي على ذاك الزمان وهل ينشئ زمانا ماضيا لهف

أم هل يساح الورد ثانية ويلد برد الماء مرتشف

أتراني في هذه الساعة جعلت أحفل بما كنت أحفل به قبل ، من ذلك الفارق
العظيم بيني وبين هذا الرجل من حيث العجاة والمنصب ؟ أتراني جعلت أعلق
أهمية عظمي على تفاوت الطبقة والدرجة والثراء والنعمة ؟ أتراني جعلت أفكر
في ذلك الحائط الضخم المتبع الرفيع الفاصل ما بيني وبينه ؟

كلا ! لقد طفقت أبكي وأنتحب وأعصر فؤادي بكلتا يدي خشية أن
يتصدع ، وجعلت أصبح :

« رياه ! رياه ! لقد ضاعت حياتي ! »

وبقي « بيوتر سرجيتش » صامتا لا يفوه بكلمة ، ومن عجب أنه لم ينهني عن
البكاء ولم يقل لي هوني عليك وكفكفي من عبرتك . لقد أدرك أن البكاء كان
إذ ذاك لي نافعا وأن شفائي عبء . مهراقة ، وأنه قد آن لي أوان البكاء فلا مناص
منه ولا مهرب .

ولكنني قرأت في عينيه وعلى صحيفة محياه آية الأسف والرتاء لي وكنت آسف
عليه وأشد رتاء له ، واعترااني فوق ذلك نوع من الغيظ والحنق على ذلك الرجل
الهيابة المحتشم القليل الجرأة والإقدام الذي قد كان في استطاعته أن يسعدني

ويسعد نفسه فأضاع الفرصة ولم يفلح .

ولما شيعته إلى باب المنزل رأيته يتباطأ ويتريث عمدا كأنه يعز عليه أن يفارقتي ، ثم أنه أخذ يدي وقلبها مرتين دون أن ينبس ببنت شفة ، ونظر نظرة طويلة في وجهي المبلل بالدموع .

واعتقادي أنه في تلك اللحظة لابد أن يكون قد ذكر تلك الليلة المعهودة - ليلة العاصفة والبرق والرعد وشآبيب الغيث وما كان ثمت من ضحكنا ولعبنا - ورأيته كأنما يود أن يفوه لي بشيء ويتحرق على أن يحدثني حديثا . ولو فعل لكان فيه أيما تفريج لكربته وتنفيس للوعته ، ولكنه أمسك فلم يقل شيئا ، ولم يزد على أن هز رأسه وضغط على يدي ، كان له الله ، وفي سبيل الله ماعاني وكابد !

وعلى إثر انصرافه عدت إلى غرفتي وقعدت على الأرض إزاء النار ، وكانت أوشكت أن تخبو ، وجعل الثلج المتساقط ينتحي نافذة الغرفة فيضرب زجاجها ضربا عنيفا ، والريح خلال المدخنة تعوى وتعول !

راشيل

كان بمدينة « بون » من أعمال المانيا ، يهودى مراب ، يدعى « هارون » له ابنة تدعى « راشيل »

لقد زرت هذه المدينة عام أول ، أعنى بعد خمسة عشر حولا من تاريخ هذه القصة ، وسألت عن هارون هذا فنبئت أنه فى السجن ، من جراء جنابة اختلاس وتزوير ، فسررت أيضا سرور وقد أصاب منى هذا النبا مواقع الماء من ذى الغلة الصادى - لقد انتقم لى القدر من ذلك العدو المبين .

كانت الآنسة « راشيل » من أجمل النساء ، وكانت أول ما رأيته جالسة إلى نافذة بدارها قد طوقتها الطبيعة بإطار من الكرم تتوقد فيه يواقيت العناقيد على صفائح الزبرجد ، - وقد ألقى الشعاع من بين شوابك الكرم وأوراقه على وجه تلك الغادة المفتان ، دنائير تفر من البنان ، وكانت حاسرة الذراعين والعصدين ، على خصرها الدقيق زئار من الديباج الأزرق ، وكانت تغزل كسائر الألمانية . وفى زاوية الغرفة كانت أختها ريبيكا (امرأة شديدة اليأس جهيرة الصوت) تعزف على البيانو أفضع عزف يصعبه أشنع غناء .

وكنت أقصد بيت أبيها لتحويل سند ، فوقفت أنشد باب الخزينة . ووجهت الآنسة « راشيل » سؤالها إلى ، وأمالت جيدها الحسان فى تيه ودلال ، ورمقتى يعنين نجلوين زرقاوين ، سرعان ما حولتهما عنى كأنما قد أتعبهما شخصى وثقلت عليهما صورتى ، قالت بالألمانية : « لنكس » أعنى « عن يسارك » .

فوقع لفظها منى موقع الشيم القراح ، من الظامىء الملتاح ، على أنه لفظ بسيط عادى ، ولو أسمعتهى غيرها ذلك اللفظ ألف ألف مرة لما حركت منى ساكنا ، ولكن الحسنة « راشيل » لما فاهت بتلك الكلمة افترت عن ثغر نظيم وضاح :

كأنما تبسم عن لؤلؤ متضد أو بسرد أو أقاح

وكان لصوتها عذوبة تمتزج بأجزاء النفس وحلاوة ترسب في أعماق الشعور والوجدان . ولا تسل عما كان خجلى وارتباكى أمام الحسناء « راشيل » وخفقان قلبى واصطكاك قدمى وركبتى ، وسقوط قلنسوتى من يدى على إثر رفعها بالتحية والشكر .

ودخلت على أبيها هارون وابنه سليمان ، فقضيت لديهما حاجتى ، فأما إنهما خدعانى فذلك من البديهيات ، فإنه لا مندوحة لليهودى عن الغش مطلقا ، فهو يغشك من أجل درهم ، بل من أجل دانق ، بل سحتوت ، وإن أولم لك بعد ذلك وأدبك مائدة حافلة تكن تحت أثقالها من الألوان ، فإنما يفعل ذلك لكى يسرق ساعتك أو كيسك ، ولا مناص له من ذلك ولو كنت أخاه أو أباه .

وقال لى اليهودى هارون وهو ينقدنى الدنانير « إن كنت ياسيدى مقيما فى بلدنا هذه ردحا من الزمن ، فلا تهرمنى ولا تهرمن بناتى لذة الاستمتاع بطلمعتك البهية ، وعشرتلك الهنية » .

لم تكن بى إلى الإقامة فى تلك البلدة من حاجة ، ولكن جمال الآسنة « راشيل » فتننى وسحرنى فانتهزت تلك الفرصة السانحة فأجبت اليهودى قائلا : « لقد نعت أن كلية الآداب ههنا ستلقى سلسلة محاضرات فى تاريخ الدولة الرومانية الشرقية ، ولما كنت من عشاق هذا التاريخ ، فلا مناص لى من البقاء هنا برهة طويلة » .

وكذلك عمدت إلى فندق قريب من بيت اليهودى ، فاستأجرت به غرفة لشواى .

وعزمت على دراسة اللغة الألمانية ، فتبرع لى اليهودى هارون بأستاذ ، موظف عنده اسمه « هرش » من أبشع الناس صورة وأقبحهم خلقا - يهودى أبيض الشعر والحاجبين والشاربين ، كأن فى رأسه ووجهه حريقة ، - جاحظ العينين ، غليظ الشفتين ، - هذا المخلوق العجيب شرع يتولى تعليمى الألمانية ، وسرعان ما أضاف إلى هذه الوظيفة مهنة أخرى فأصبح كذلك شبه خدام لى يروح ويغلو فى كافة شئونى وحاجاتى ، وكنت لأناديه إلا بقولى « هرش ! أيها الوغد الخسيس

والنذل والنكس الدنيء ! هات حذائي ! » هرش يا عبد السوء ويا أخا الشيطان !
نظف ردائي ! »

» هرش ! أيها الكلب الدنس ، الذئب الخبيث ! امض بهذه الرسالة إلى صندوق البريد ! » . وكان الخنزير أطوع إلى من بناني ، يسترط من شتائم هذه ولعناتي ، الشهد المكرر ، والفستق المقشر .

ومن مزايه عندي أنه كان من ناحية الحساء » راشيل » ليس بالحبيب المعشوق ، ولكنه من ناحيته ليس بالوردة الناضرة ، ولكنه يحمل أريجها وعبقها ، وهل في طول ألمانيا وعرضها وردة أبهى وأنضرم » راشيل » ؟ .. كلا ! ..

و كنت - كسائر أهل جلدتي من أبناء بريطانيا - مغرورا مزهوا فخورا ، أعتقد أن الإنكليزي سيد شعوب الأرض وأفضل من طلعت عليه الشمس ، ولا أزال في رحلاتي وأسفاري أحتقر الأجانب وأجرعهم مضاضة ازدرائي ، وخطرستي وكبريائي ، مما كان يجلب على العداوة والبغضاء من كل إنسان ، كائنا من كان .

وبهذا الزهو والغرور والكبرياء، هذه الغفلة والحمق والغباء - كنت أجلس إلى الفتاة » راشيل » الساعات العديدة ، أوسعها سامة وضجرا بفضول هرائي وهذري ، أسحر من أهل بلادها ومن عاداتهم وأخلاقهم - وأنصب المسكين » هرش » هدفا لسهام قوارعي وقوارصي ، أقصد بذلك إلى تفكهة الفتاة وتسليتها حتى قلت لها إن » هرش » لا يصلح إلا حمارا أو زبالا ، فتجيبني هي بقولها لله دركم أيها الإنجليز ، ما أخف وأحكم وأظرف فكاهتكم ! .. »

وهي في ضميرها تسخر مني وتضحك ، وأرد عليها كالأبله المعتوه قائلا » إي والله نحن كما تصفين وفوق ما تصفين ، نحن أخف أرواحا من الألمان وأرق ظرفا ، وأعجب ملححة ونادرة » ثم أقارب بين أجفاني وأصوب إليها نظرة فتاة إلى أنها ستفتت كبدها وتذهب أحشاءها ، يالبله ! ويا للغفلة ! ويا للغباوة ! .. أتدري كيف استثمرت الفتاة غباوتي ، واستغلت غفلي وحماتي ؟ .. في الجلسة الأولى سألتني قائلة :

» أيعجبك هذا الشاي الذي أسقيك منه الآن ؟ .. » وكانت إذ ذاك تقدم إلى كوبة من صنف من الشاي ليس بالغاية القصوى في الطيب والجودة ، ثم

أكدت لى أنه من صفوة وارادت الصين ، وأنه لا يوجد بأوروبا جميعها ذرة منه ، قلت لها حقا إنه لبديع « هذا كل ماقلته - لأقل ولا أكثر .

وفى غد ذلك اليوم دخل على « هرش » مبتسما يحمل أربعة وعشرين رطلا من ذلك الشاي ، ولم أجد مفرا من دفع ثمنها ، اثني عشر جنيها إنكليزيا - ولى الشرف ! ..

ولما زرت الأسرة بعد ذلك ، قال لى والد الفتاة « هارون » :
« أريد أن أديقك بضع كتوس من نبيذ قبرص ، هذا النبيذ لا يوجد إلا عند أخى المقيم فى سالونيك » ..

وبعد أربعة أيام من ذلك سألنى المسيو هارون قائلا : « كيف وجدت لذة النبيذ الذى بعثت به إليك بناء على طلبك ؟ .. أتريد أن أبعث إليك بكمية أخرى ؟ ..

قلت له :

« عجبا ! .. ماذا تقول ؟ .. وماذا تعنى ؟ .. وأى نبيذ طلبته إليك حتى بعثت به إلى ؟ .. ومتى أرسلته ؟ .. »

قال :

« منذ ثلاثة أيام ، وقد وضعه « هرش » يديه فى خزانتك » ..

ثم اقترح أن يرسل إلى صنفنا آخر اسمه « ميدوك » ، ولم تمض ساعة حتى كان فى غرفتى صندوق من ذلك الصنف ، من طيه حوالة معنونة باسم جناب الكونت « فون فيتسبوديل (اسمى) .

فى ذات يوم كنت جالسا بين الفتاة وأبيها ، وكان أبوها هارون ، يدخن من بية قد ضم عليها شفته ، فقالت له الأنسة « راشيل » :

« ما أعجب شأنك يا أبت ! .. تدخن فى وجه الكونت ، تؤذيه بأنفاس التبغ المتلاحقة ، أبعد قليلا ، اتبذ منا ناحية . ألا تعلم أن سراة الإنكليز وسادتهم يمقتون التدخين ؟ .. »

فأجاب محسوبا وخادما : لقلّة عقله ولسوء حظه - قائلا :

« كلا ، أنا لا أمقت التدخين ، ولقد أددخن أحيانا » ..

فصاح الرجل قائلا :

« أأضري « بيبة » لآجناب الكونت يا راشيل » ..

فصاحت الآنسة واثبة من مكانها :

« أآجل ، تلك البيبة المستطيلة العجبية الصنع التي آاءتنا من بلاد الهند منذ أيام « . وسرعان ما عادت إلى بأنبوبة طويلة من العناب مآشة بقطيفة حمراء مزركشة بالذهب ، يآحدى طرفيها صحن من الكهرمان المرصع بالصدف ، وبالأخر مبسم مذهب ، وسعت بها الفتاة إلى تميم وتترنج ، كأنما هي آنسة من الآور العين تحمل إلى عودا من أشجار الجنة .

وأشعلت لى البيبة بنفسها ، وأبدت أثناء ذلك من الآركات القتالة الفتاكة ما هون على أن أددع ثمن البيبة فى الحال أربعة وعشرين حنيها إنكليزيا ، ولا يفوتك أنسى فككت مبسم البيبة ، ذلك المبسم السذى وضعته بين شفتيها فلشرب من حلاوة ذلك الكوثر ، ثم فصلته وحده ولقفته فى فرد قفاز الفتاة ووضعته تحت قميصى ، لصق أحشائى الملتهبة ليرد غليلها . وفى تلك الليلة كنت ترانى مسهد الأآجان أأململ على فراشى ، أمامى فرد القفاز الأصفر لا أصرف عنه ناظرى طرفة عين ، وفى فمى مبسم البيبة ألوكه وأمضغه كأنه قطعة من اللبن فى شديق ابن ثلاثة ، أو حلمة فى فم رضيع .

ولما طلع على « هرش » فى صباح تلك الليلة ، قلت له :

« هرش ! .. يا كلب اليهود ! .. هل آجتسى ببقية البيبة ؟ .. أنا لم آأخذ أمس

سوى مبسمها » ..

قال « هرش » :

« أآجل ، وآجتك معها بثمانية عشر رطلا من التبغ الذى صرحت البارحة بأنك لم تذق مثله قط ، ما أعظم فوزك فيه وما أربح صفقتك ! ... »

شهد الله ما صرحت بأدنى شىء مما عزوه إلى كذبا وزورا ، وما ذكرت ذاك التبغ لا بآخير ولا بشر ، ولكننى كظمت غيظى وتصنعت الارتياح وقلة المبالاة بتلك القرامة الجديدة ، وقلت ضع التبغ فى الآزانة ، لقد قبلته ، ثم غيرت

موضوع الحديث فقلت :

« اسمع يا هرش » ، أتعلم - بعد - أن صغرى بنات المسيو هارون تلك المسماة
« حنة » فيما أظن .. »

فابتسم « هرش » ابتسامة لؤم ومكر ، وقال :

« ليس اسمها حنة » ياسيدى بل « راشيل » ، قلت :

« فليكن كما تقول « راشيل » ، أتعلم أنها فتاة الدلال فتاكة اللحاظ ؟ إى
وربى إنها لكذلك وفوق ذلك ! .. »

قال « هرش » :

« أتلك عقيدتك ؟ .. »

« أجل ، لقد تيمتى ، ولاعت فؤادى .. »

« لشد ما تشرفت ألمانيا ، بتنزل شريف مثلك إلى محبة إحدى بناتها »

« كم ترى مبلغ أبيها من اليسار ؟ .. وكم يجعل مهرها إذا هم بتزويجها ؟ .. »

« أما ثروة الرجل فطفيفة جدا لا تكاد تذكر ، الرجل ياسيدى فقير ، لا تبلغ
ثروته كلها مقدار ما تنفق أنت فى أسبوع واحد » ..

قلت له :

« مهلا ! .. مهلا ! .. ما أغباك إذ تتهمنى بالغنى ، إنى فقير وفى الفقر

عريق » ..

« أنت فقير ياسيدى ! .. ليت لى مقدار إيرادك عن نصف عام ، إذن والله

لأثريت » ..

وكذب اللعين ، لقد كان أغنى منى وأثرى قلت له :

« اسمع يا هرش ! .. أتحمل منى رسالة إلى راشيل ؟ .. »

« بكل ارتياح ياسيدى » ..

لم يكن هناك ما يضطرنى إلى اتخاذ رسول بينى وبين الفتاة ، فلقد كنت أكثر
التردد إليها ، وأجلس معها الساعات الطوال فى خلوة ، وما كان أسهل على من
إعطائها رسائل يدا بيد ، ولكنى كنت أجهل الناس بمسائل الحب وشعونه ،

وكنت قرأت في بعض الروايات ، إن الخطط والتدابير في المسائل الغرامية ليست من وظيفة العاشق وما تنبغي له ، لأنه أعلى مقاما من ذلك وأعز مكانة - إنما هي مهمة الرسول أو الخادم» ومن ثم أردت أن أجعل هرش رسولاً إلى الفتاة .

ولما شرعت في تحرير الرسالة وجدتها نكبة من أفدح النكبات ، أكتبها نثراً أم نظماً ؟ .. ومن لي بين الألفاظ - الانكليزية بالقافية الموافقة لاسم الفتاة « راشيل » ؟ .. إذن أنظمها بالفرنسية وكنبت أضعف الناس في هذه اللغة ، فجاءت الرسالة كلها سخافات وأغلاطاً ، من أحط ما جادت به قريحة غبي جاهل .

وتناول هرش الرسالة ، ورأيت من الخزم أن أرشوه على الصمت والكتمان ، فاشتريت منه سلسلة ساعة حديدية صدئة بأربعة جنيهات .

ولما حضرت مجلس الآنسة مساء لم تستطع مشافهتي في أمر الرسالة لحضور أهلها وأقاربها ، ولكنني قرأت في لين ألحاظها ورقة ابتسامتها أوضح آيات العطف والتودد ، ولفرط اضطرابي ونشوتي ، صرت أخسر الدينار تلو الدينار لامرأة ضخمة قيحة (إحدى عمات راشيل) كنت ألعبها الورق ، حتى خلت جيوبى ، وفي تلك الليلة ذاتها باعنى المسيو هارون ثلاثين ثوباً من التيل لأفصلها قمصاً ، ولا يفوتن القارئ أن المسيو هارون لو أنس منى أدنى ميل إلى كيلو متر مكعب من الطوب ، أو إلى جراب ثعابين ، أو إلى كفن أو قبر ، لوجدت كل هذه الأشياء على باب منزلى فى أقل من ساعة من الزمن .

وازداد شغفى بالفتاة واشتد هيامى ، وكثر ترددى على دارها وطال لبثى هنالك وتلكؤى ، وقبلت هى ذلك بالصد والإعراض ، وباليه والخيلاء ، .. وفى أثناء ذلك كان المسيو هارون لا يمر عليه يوم إلا ويبيعنى فيه شيئاً : أطباقاً ، وصحوناً ، وسكاكين ، وملاعق ، وشمعا ، وصابوناً ، وبنا ، وأساور وخواتم ، وحللاً حريرية مبطنه بالفرو ، ومصابيح فضة ، وشمعدانات نحاس ، ودواوين شعر وكتب فلسفة ، وختم المصائب بقاموس ! ..

فى ذات يوم زارنى صديق لى صحبة رجل من تجار التبغ يدعى المسيو

« رور » وأذاقتى شيئا من صنوف بضاعته ، فقلت له « محال أن يكون لديك شيء يدانى ذلك الصنف الذى اشتريته من أحد كبار الملايين فى بلدتكم هذه » ..

فقال التاجر « رور » بلهجة الهازىء الساخر :

« هل اشتريته من المسيو هارون ؟ .. »

قلت « ما عدوت الحقيقة ، ولقد استورده من أخيه المقيم بالسوليك » .

« كلا ! .. إنما اشتراه من عندى ، لقد خدعك اليهودى ، وكم مثلك قد خدع وسلب ! .. »

قال صاحبى الضابط للمسيو « رور » وكأنه قد سر بمصيبتى تشفيا وشماتة :

« وهل تبيع الخمر أيضا للمسيو هارون يا مسيو « رور » ؟ .. »

قال « رور » وابتسم ابتسامة دهاء وخبث تحتها ما تحتها :

« اليهودى يصنع خمرة يديه ، ولكن عندى صنف بديع من النبيذ اسمه

« ميذوك » (يعرض بالنبيذ الذى يعنى إياه اليهودى) - وهو تحت تصرف

الكونت « يريدنى » إن شاء بعث إليه منه بما فيه أقصى المنى والمراد « .. »

فأدركت ما انطوت عليه هذه الكلمة من خبث التعريض والتهمك ، والنهب

الغضب فى مقالتى وصحت بالرجل « اخرج من هنا ، لا أبعد الله غيرك ! .. »

فانتفض قائما وطار من المكان مدعورا .

ثم أفهمنى صديقى أن هذه الأسرة قد خدعتنى وسلبتنى ، وأنه لا هم لها ولا

شغل ولا وظيفة إلا فعل ذلك بكل من أوقعه سوء الحظ فى حبال غشها ، وأشارك

خداعها .

ولما لجى بى الهيام ، وأوشك أن يودى بى الغرام ، عقدت النية على مشافهة

راشيل فى ذلك الأمر الخطير ، فاقترحت على الأسرة ، وكنا عائدتين من بعض

الحفلات إلى حارهم - أن نجول ساعة فى الرياض والبساتين ، وأخذت بلراع

« راشيل » ومشى اليهودى هارون مع ابنته الأخرى ، واللعين هرش مع خالة

حبيبتى ، وأسعرت بالفتاة حتى سبقتهم بها مسافة بعيدة وخلوت إليها وأقبلت

أمطرها وابلا ثرا من عبارات الغزل وكلمات العشق ، وأنات الوجد والصبابة ،
وهى جامدة كالصنم لا تنبعث منها جارحة ، ولا تخفق لها نابضة ، ولا تقوه
ببنت شفة ، إلى أن قلت لها :

« انظري إلى ضياء هذا الليل في سواده ، إنه لاشبيه له سوى عينيك ! .. »
وبقيت صامته جامدة ..

فلما عيل صبرى ، قلت لها :

« راشيل ! .. راشيل ! .. إني أحبك ، وأراك تعرفين ذلك منذ زمان ، ما
بالك تنزعين يدك من يدي يا حبيبتى ! .. ألم تعاهد على العشق والوفاء ؟ .. ولئن
لم تنفأوس فى ذلك باللسان ، لقد تفاوضت فيه منا العيتان ، والمهجتان ، كوني
زوجة لى يا راشيل ! .. »

وانهلت بالثلمات على يديها ، وكنت لاشك منتقلا إلى وجنتيها ، لولا أنها
لطمتنى على وجهى أشد لطمة ، ونفرت عني شاردة ، ثم سقطت من قامتها على
الثرى وطفقت تصيح بأعلى صوت ..

وهنا أقبل اللعين « هرش » يعدو كالذئب الجائع حتى انحنى فوق الفتاة ،
يصيح :

« زوجتى ! .. زوجتى ! .. زوجتى راشيل ، ما خطبك وماذا دهاك ؟ »
ونهضت الفتاة (بل المرأة) فألقت بنفسها بين ذراعى زوجها هرش « وهى
تصيح « زوجى لورنزو ! أنقذنى ! نجنى ! أدركنى ! »
وصاح هرش قائلا :

« يا للرجال لذلك النصرانى الوغد ، يريد أن يختطف سيدة شريفة من
أحضان زوجها الشريف .. »
وصاحت راشيل :

« الغياث والنجدة من ذلك اللص ، يهم أن يفتك بالسيدات ذوات الطهر
والعفاف .. »

وفى مساء ذلك اليوم كنت على المحطة أنتظر القطار لأرحل عن تلك البلدة

بالخزى والهزيمة ، ولما جاء القطار وأخذت مجلسى إلى إحدى النوافذ ، ودق
الجرس الثالث ، ما راعنى إلا منظر الشيطان الرجيم « هرش » ماثلاً أمامى وعلى
وجهه أحيث ابتسامة ، وألأح لى ييده الأثيمة وصاح قائلاً :
« سيدى الكونت ! .. ما رأيك فى ستة أرطال من أجود التبخ وزجاجة من
أعتق النبيذ تقتل بها الوقت أثناء السفر وتدفع بها الضجر والملل ؟ .. لقد جئتك
بها على عجل ، لما بلغنى نبأ رحيلك ، والدفع على مهل » ..
وتحرك القطار .

المسك

كان الملك على سرير الموت ، لا يسمع زفرات زوجته الصغيرة الحسنة ولا يرى دموعها المنسجمة .

كان مستلقيا في سكرة الموت ، إحدى يديه مطروحة على اللحاف ، كأنما تنشد ضالة ، وقد أخذتها الملكة في كفها ، ولكنها لم تحس بها أية الشعور ، وأخيرا أغمضت العينان ووقف القلب .

ولما عاد الملك إلى شعوره ، وأجال في المكان نظراته ، ألقى السكون شاملا ، وكان ذلك السكون المستلذ بردا وسلاما على قلبه ، وروحا وريحانا ، فأحس كأنه في الفردوس ، وكانت الحجرة مفعمة بنفحات الأزهار ، وهبت عليه نسيمات الليل الغضة من خلال نافذة مفتوحة ، وكان على حافة سريريه مما يلي قدميه صف من الشمع يرسل ضياء لينا رطبا ، وحوله خمسة رجال يحرسونه ، وقد مال العاس بأعناقهم وارتفع شخيرهم .

لقد شعر إذ ذاك بما لم يشعر بمثله قط من الغبطة والهناء والسعادة ، فاستسلم إلى ذلك الشعور اللذيذ الجديد وأخذ واطمأن ، حتى لقد أبى أن يتحرك خشية أن تذهب الحركة بشيء من تلك اللذة الفردوسية ، وبعد برهة دقت ساعة القصر الكبرى إحدى عشرة ، فتحرك الملك في مضطجعه ثم جلس وضحك ضحكة خفيفة .

وهنا تذكر أنه لما كان في سكرة الموت ، وقد جعل يذهب عنه عقله وهو يحاول استرداده بأقصى جهده ، وقد رفع بصره يسائل القضاء الظالم لماذا يخرجني من الدنيا أحوج ما تكون إليه الدنيا ، سمع هاتفا يناجيهِ قائلا : « أيها الملك ، أنت تحسب الدنيا تحتاج إليك أشد الحاجة ، فلندعك في حسابك هذا ، ولنمنحك بعد موتك ساعة تختبر فيها أهل دنياك وتسبر عواطفهم نجوك ، فإن أصبت فيهم ثلاثة يشتهون حياتك فعش ! »

وكذلك كانت هذه الساعة ساعته التي اختطفها من بين برائن الموت .
 لقد علم أنه كان عادلا رحيمًا ، برا كريما ، كثير السهر على مصلحة رعيته ،
 ثم إنه نزل عن سريره وخرج من الغرفة ، ولكنه وقف ببابها مترددا ، لا يدري
 إلى أين يذهب أولا : أيذهب إلى زوجته ؟ كلا ! كيف يستطيع أن يراها وهي
 في أشد حالات الجزع تقطع نفسها حسرة وكمدا ، وتود لو تهلك أسي ووجدا ،
 كلا لن يذهب إلى الملكة وهي على هذه الحال ، إن ما تخيله من هيئة جزعها
 وتفجعها أوهى جلده ، وهد ركنه ، وبدد نظام أعصابه ، كلا ! لقد أرجأ لقاءها
 إلى ما بعد ساعة الاختبار هذه ، أى إلى وقت يستطيع فيه أن يضمها بين ذراعيه
 ويقول لها : « بشراك ، لقد عدت إلى الحياة حقا ، فطبيبي نفسا وقرى عينا »
 وبعد ، فإنما هي ساعة واحدة ويرجع إلى الحياة الدنيا ، ثم لن يتذكر مما هو
 فيه الآن إلا أضغاث أحلام .

وخرج من باب القصر ، وامتدت أمامه مدينة تحت قمر باهر .
 'وشملة الظلماء مكفورة تحت رداء القصر المذهب
 وقال في نفسه :

« ثلاثة يشتهون بقائي ! ويل لذلك الهاتف ! والله لو شئت لجئت الساعة
 بثلاثة آلاف .. أليست الرعية جميعا أبنائي البررة ؟ »
 على بضع خطوات من باب القصر ألقى الملك طفلا صغيرا قد افترش الثرى
 يكي ويعول ، ولما سأله الديدبان عن علة بكائه أجاب قائلا :
 « لقد ذهب أبى وأمى إلى جنازة الملك ولم يعودا ، وها أنذا أقاسى الجوع
 والظلم ، وقد انكسرت لعبتى ، وها أنذا أصبح وأنادى وما من سميع ولا مجيب ،
 وكل ذلك لوفاة الملك .. ألا ليت الملك يبعث ويعيش ! »
 ثم أجهش بالبكاء ثانيا .

فسر الملك بذلك كثيرا ، وقال في نفسه :
 « هذا أول فرد من ريعتى يشتهى عودتى إلى الحياة .
 وكان الملك لم يرزق البنين ، فحن قلبه لذلك الصغير ، ورق فؤاده ، وود لو

جلس إليه فيكي ليكاته ، وواساه وسلاه ، ولكن مجال الوقت كان أضيق من ذلك .

عمد الملك إلى دار أصدق أصدقائه ، وأوفى أوليائه ، وأحسن بنوع خييت من اللذة إذ جعل يصور نفسه ما سوف يجد عليه صديقه هذا من غلواء الحزن وبرحائه .

وقال في نفسه :

« لهنى عليك يا صديقي «إمياس» ! لقد والله أستطيع أن أدرك مبلغ حزنك قياساً على ما كان يلحقني لو كنت أنت المفقود دوني ، وشد ما يسرنى أن أكون أنا الهالك ، إذ لو بقيت بعدك لما أطقحت احتمال مصابك »

ثم دخل دار صاحبه فوجد ساحتها مقفرة ، وكلما أفضى إلى حجرة وجدها خاوية ، وبينما هو في إحدى الغرف الخالية ، دخل عليه شخصان يتحادثان ، أحدهما سيدة الدار ، زوجة صديقه ، والثاني سفير من سفرائه شاكي السلاح ، كأنما قد قدم من بلاد قاصية ، وقال ذلك السفير يخاطب السيدة ربة البيت :

« أين زوجك إمياس ؟ »

فأجابت قائلة :

« لقد ذهب إلى الملك الجديد ، ليؤدى إليه فرائض النهاني ، ويهبه الطاعة والولاء ، ويرأى إليه من التعلق بذكرى الملك السابق ، والواقع أن ملكنا الجديد أفضل ألف ألف مرة من السالف ، الذى لم يكن سوى حدث طائش مأفون الرأى مستضعف ، وإنى لأخشى أن ما كان لزوجي عند الملك السالف من المكانة والزلفى ربما أزرى به عند الملك الجديد ، ولكن زوجي مستطيع إن شاء الله أن يستجلب رضاه وعطفه بالطعن على سلفه والقدح فيه ، واستكثار خطبته العوجاء ، وسيرته الخرقاء ، وسياسته الهوجاء ، ولعل العقابة سليمة . ولا أنكر أن زوجي كان للملك السالف ، شديد التعلق بأذياله ، والتمسك بمجاله ، ولكننا مضطرون أن ننظر إلى أنفسنا ، وإلى مصلحتنا ، والمصلحة قبل العاطفة ، والعاقل من ليس لكل زمن لبوسه ، ودار مع الدهر كيفما دار ، وعلى هذه النية أسرع زوجي إلى الملك الجديد لينال الخطوة لديه ، وقد أرسلت وراءه حاشيته وأتباعه »

وكان فى ذلك السجن عدو ألد الخصام ، كان قد حاول الخروج عليه وقلب ملكته ، وقد حكمت عليه المحكمة بالإعدام (لم تكن عقوبة بالإعدام قد ألغيت) ، عمد الملك إلى السجن ودخل غرفة عدوه المذكور ، فألقاه يكتب ورقة والسجان على رأسه ، يصحبه مدير السجن .

فرغ السجن رأسه وقال :

« ماذا تريدان الآن ؟ .. أليس الصباح هو الموعد ؟ .. على أنى مستعد فى كل لحظة ، هلا تفضلتما بإبلاغ هذه الرقعة إلى زوجتى ؟ .. »
فقال له مدير السجن « لاحتاجة بك الآن إلى أن تبحث لزوجتك برسالة الوداع الأبدى ، فلقد مات الملك ، وفى نية الملك الجديد ، أن يطلق المساجين جميعا ، فافرح بالنجاة واغبط ! »

فصاح السجن مذعورا « مات الملك ! .. »

ثم وثب واقفا ومسح على جبينه بيده وقال بصوت حار يلتهب فى نبراته الإخلاص والحزن ..

« سيدى ، لقد كنت أحترمه ، على العداوة والبغضاء ، لقد كان على أية حال رجلا جادا مخلصا ، ولقد عاملنى معاملة الحر للحر ، وله مثلى زوجة صغيرة تبكيه وتنديه ، رحمه الله رحمة واسعة ، ليت بقى لأهله ورعيته ! »
واغرورت عيناه بالدموع ...

ودقت الساعة الربع الثالث والملك يغادر السجن .

لقد أفعم فؤاده خشوعا ومذلة ، إذ كانت رحمة عدوه ورثاؤه أشد وطأة عليه وغضاظة من خيانة أوليائه ، ولكنه لفرط مروءته ونبله احترم عاطفة النبل فى ذلك العدو وأجل فيه شيمة الكرم والمروءة ، لقد تجلت له الآن صورة الحياة وسخفها وحقارتها ، وغدر أهلها ولؤمهم فى أجلى مظهر ، وتبين له أن الحياة أحقر وأخس من أن يطمع فيها ثانيا ، وتندم على ما كان منه من سخطه على القدر حين أماته فأثقله من شرها ، لقد ساءه أن ما اعتمد عليه من محبة الرعية ووفائها لم يكن إلا وهم واهم وحلم حالم ، وأن الشعب الذى من أجله طالما كد ونصب ، لم يكن لمساعدته وجهوده أهلا ولا بخدماته الجليلة جديرا وأنه لم يكن له من صديق

يود بقاءه سوى عدو نبيل وطفل ساذج . أليس أجدر به وأولى أن يثوب إلى ظلمة القبر مستسلما لحكم القضاء ؟ لقد تلقى درسا بليغا وهو الرضا بما قدر له ثم يثوب في مقره الأخير وينام نومة طويلة هادئة .

تراكت السحب الكثيفة دون القمر ونفحته قرة قارسة ، وتملكته وحشة أليمة قاسية ، أحقا ليس ثمت من ولي ولا صاحب ؟ لقد هان عليه إذ ذاك أن يضحى بكل شيء مقابل نظرة حنان أو كلمة مواساة ، لقد ناقت أذنه إلى مسمع موافق الحب وعهوده

وصل إلى باب مقصورة زوجته ولكنه وقف مترددا . أليس من المحتمل أنه قد خدع أيضا في زوجته وإنها كسائر الناس كاذبة غادرة ؟ أليس أولى له أن ينقلب إلى مثواه قبل أن تتكشف له الحقيقة المؤلمة ؟

والتي زوجته جالسة وحدها إلى المصطفى قد ستر وجهها شعرها المنسدل على منكبيها فما هو أن أبصرها على هذه الحال حتى تندم على ما كان من سوء ظنه بها .

وكان على خنصرها خاتم كان قد وهبه إياها ليلة الزفاف يتألق ويتلألأ ولم يك في الغرفة شيء مضيء غيره .

لقد كان يوده أن يواسيها ، وعجب لماذا انصرف عنها وصائفها وجواربها ، لقد كان من الواجب أن تبقى معها ولو واحدة منهن في أولى ليالي مصابها ، وكانت في لجة هواجسها غارقة ، ليها تنظر إليه نظرة أو تناديه باسمه ولكنها ظلت صامتة .

لقد سمع صوتا ضيلا أزعجه ، إذ انفتح باب سرى في الحائط ، وكان الملك يعتقد أنه لا أحد يعلم بمكان ذاك الباب إلا هو وزوجته ، ثم أبصر رجلا أمامه . ووضعت الملكة أصبعها على فمها إيدانا بالصمت ، ثم قامت فألقت بنفسها بين ذراعي ذلك الطارق ، وقالت له :

« أو قد جئت أخيرا ؟ لقد عيل صبرى ، ما أشد فرحتي ! لقد بقيت قابضة على يده حتى وقف نبضه ، لماذا تركتني وحدي تلك البرهة الطويلة ؟ لقد خشيت أن يطرقني خياله ! ولكنه لن يعود أبدا ! لقد خلا لنا الجو ، فحق لنا أن نغبط

ونسعد ! ثم نزعَت الخاتم عن خنصرها ، فقبلته ، وأهدته إياه . ولما دقت الساعة
اثنى عشرة هب الحراس من منامهم ، ونظروا إلى جثة الملك فألقوها مدة يابسة
كما كانت ، ولكن الوجه أصابه تغير شديد لقد كان عند صعود الروح مشرقا
بساما ، فتكرت بشاشته وانطلقاً نوره !

وقال الحراس :

« شد ماتشنت صورته ! أولى لنا أن لاندع الملكة تراه ثانية » .

لويزا

قبلت دعوة البارون إلى مصطافه بالريف لقضاء موسم الصيد هنالك فركبنا
القطار إلى إقليم « نورماندى » وفى محطة « الفيمار » نزلنا فاعتلينا مركبة فخمة
ذات جوادين يسوقها فلاح مديد القامة أشيب الرأس والشاريين . وبعد أن صافح
البارون سواقه الأمين واندفعت المركبة فى مسيرها قال لى صاحبه :
« وهذا السائق أشد الناس محبة لى وإخلاصا »

وما زالت المركبة تنهب المدى وتطوى بنا الأرض طيا حتى بلغنا منزل البارون
فدخلناه وجلسنا بغرفة السمر ، وأخذنا فى شئون الحديث من جد إلى هزل ،
ومن حزن إلى سهل ، ثم تعشنا ، وكان إذ ذاك المسير « جان » سواق البارون
وخادمه وحارس منزله يتولى خدمتنا بمنتهى الأدب والإخلاص والولاء ، حتى
إذا فرغنا من الطعام أقبل على سيده البارون فسأله الانصراف قائلا « اسمح لى الآن
بالذهاب يا سيدى فإنى لم أعتد السهر »

فأعطاه البارون يده وقال له بصوت تلتهب فى غضونه حرارة العطف والحنان
والرحمة :

« لا بأس يا صديقى صحبتك السلامة ويكلوك الله بعين رعايته »

ثم ذهب الخادم الأمين ، ولم أملك أن قلت للبارون :

« ما رأيت سيدا أشد عطفًا على خادمه منك على هذا الرجل »

قال البارون :

« إن لى معه لحديثا مؤثرا يوشك أن يكون مأساة ، وهذا هو سر ذلك العطف
والحنان ، وهماكه :

قد تعلم أن والدى المرحوم كان « ميرالايا » بالجيش وكان هذا الرجل خادمه ،
ولما اعتزل والدى العجندية أخذ خادمه هذا فى خدمته الخاصة وكان عمره إذ

ذاك أربعين عاما ، وكنت أنا يومئذ في الثلاثين من عمري ، وكنا في ذلك الوقت نعيش جميعا بقصرنا المسمى « قصر فارلين » ..

في تلك الآونة كان لوالدتي وصيفة من أجمل الفتيات وأبرعهن حسنا وملاحة .

وكنت كثير المداعبة لتلك الفتاة ، أقبلها أحيانا في الدهاليز والأركان المظلمة - وهذا أقصى ما كنت أصنع معها إذ كانت فتاة عفة شريفة . وكنت أنا شديد الاحتفاظ بناموس الأدب والفضيلة أرعى حرمة الدار الأبوية ولا يمر بخاطري ألبتة أن أمس كرامتها أو ألوث طهرها وقداستها

واتفق أن خادما أبي - ذلك المسيو « جان » آنف الذكر - أحب هذه الفتاة وهام بها وجدا حتى أوشتك أن يجن بها جنونا ، وكان أول أعراض هذا الحب عنده فرط الذهول والنسيان والصمت والإطراق ، والانصراف عن الطعام والشراب .

وجعل والدى لا يزال يسأله :

« ما بالك يا بنى . أعليل ؟ فما علتك وما شكاتك ؟ »

فكان يجيب بقوله :

« كلا يا سيدى البارون ما بى من علة ولا شكاة أدام الله عليك الصحة

والعافية »

وسرى فيه الداء فهزله وأضناه ، حتى صار جلدا على عظم ، وبلغ من فرط ذهوله وتدلعه أنه كان لا يزال يسقط الصحون والأطباق من يديه فيحطمها بددا ويهرق ما بها من أطايب الطعام والشراب ، فجئناه بالطبيب فزعم أن به أمراضا عصبية ووصف له دواء فلم ينجع فيه الدواء ، وعظم الأمر على والدى وكان شديد الحب لخادمه فعزم على إرساله إلى المستشفى فلما سمع الخادم الأمين بذلك تقدم إلى والدى واعترف بسريرة أمره وحقيقة حاله وقال له بصوت خافت وجلى :

« سيدى البارون .. »

قال أبى :

« لييك يا ولدى »

قال الخادم

« ما بي إلى الدواء من حاجة »

« ما حاجتك إذن ؟ »

« الزواج يا سيدى »

فدهش والدى أيما دهش وقال :

« تقول... تقول... ماذا تقول ؟ »

« الزواج حاجتى يا سيدى البارون »

« الزواج يا حيوان ! إنك إذن عاشق مغرم وصب متيم أيها البهيم الأبله ؟ »

« هذا هو السر يا سيدى »

فضحك والدى حتى بدت نواجذه ونادى والدتى فقص عليها الحديث وعيناه مغرورقتان بدموع السرور والضحك .

ولما سمعت والدتى قصة الخادم لم يعرفوها الضحك كوالدى ، ولكن الحزن والرتاء لذلك الصب العميد ، المنكوب بشر آفات هذا الوجود . آفة الحب .

فسألت الرجل :

« ومن تلك الفتاة التى تيمتك ولاعت فؤادك ؟ »

فاعترف بلا أدنى تردد ، قائلا :

« وصيفتك لويزا ، يا سيدتى البارونة »

قالت والدتى :

« لا بأس عليك ، لن نألو جهدا فى سبيل إبلاغك منك وأوطارك »

وعلى أثر ذلك استدعيت « لويزا » وسئلت عن هذا الأمر ، فقالت إنها قد اطلعت على غرام « جان » وأنه قد باح لها بسر مرارا ، فرفضت مطالبه ، ولم تصرح لوالدتى بأسباب رفضها .

ومضى شهران ، لم يرح أبواى فى خلاهما يلحان على الفتاة أن تقبل « جان » بعلا ، وهى على الرفض والإباء مصرّة ، حتى غضب والدى وأكرهها على القبول

إكراها ، وعزز إغراءه بكيس ضخم من الدنانير ودخل بها جان « وأعفيا من الخدمة ومنحا قطعة من أرضنا بجوار هذا البيت . يستغلانها ويعيشان من ريعهما ، ولبثت ثلاث سنين لا أراها ولا أسمع عنهما شيئا ، وفى نهاية هذه المدة جاءنا نعى « لويزا » زوجة « جان » . وأنها ماتت مسلولة .

ومات من بعد ذلك والدى ثم والدتى ، ولبثت عامين آخرين لا أرى « جان » . وأخيرا جال بخاطرى أن أذهب للصيد إلى ضيعتى هذه التى نحن بها الآن . فنزلت بهذا المنزل ، وكان جان يتولى حراسته كما نراه اليوم .

واستقبلنى جان فما كان أشد دهشتى حينما رأيت الشيب قد شمله كما يشمل الأرض الجليد فى كبد الشتاء ، مع أنه لم يكن إذ ذاك يتجاوز السادسة والأربعين فاحتفيت به ولاطفته وأشركته معى فى العشاء على عین هذه المائدة التى نجلس حولها الآن .

وما كادت الخادمة تتصرف إلى مرقدها بعد أداء واجباتها نحونا ، حتى مرس إلى جان بغثة بصوت خفى غصيفى ، قال :

« سيدى البارون .. »

قلت له :

« خيرا يا مسيو جان »

« إن لى شيئا أريد أن أسر به إليك »

« لا تثريب عليك يا جان ، قل ما بدالك »

« إنه .. إنه .. سر أليم موجه » ..

« ألقه عن قوادك ، وفرج به كربتك ، فإنه لاضير عليك » .

« تذكر لويزا زوجتى ؟ »

« لا مرأى فى ذلك ، إني لأكاد أبصرها الآن بناظر الذكرى »

« لقد حملتى إليك - قبل وفاتها - رسالة ، تلك ودیعة عندى مقدسة لن أسترخ حتى أؤديها »

« وماذا عسى تكون تلك الرسالة ؟ »

« اعتراف - كما يقولون - يا سيدى .. »

« وماذا الاعتراف يا جان ؟ »

« إنها لم تمت بقاء السل يا سيدى .. إنها ماتت أسى وكمدا .. هذا خلاصة الاعتراف يا سيدى ، فإن أردت بيانا وشرحا ، فهاكه :

لما احتملت لويزا إلى مقرى الجديد بعد مغادرة منزلكم العامر أسرع إليها الهزال والضعف ، وأخذت تلوى وتذبل كالنخس حرم الرى والهواء والضياء فلو رأيتموها يومذاك ما عرفتموها ، لفرط ما صوح من زهرتها ، وذهب من بهائها وخضرتها ، وتكر من بشاشتها ، فدعوت لها الطبيب فقال أنها علة الكبد ، وكم اشترت لها من الادوية والعقاقير ، ولكنها ابست ان تنال منها كثيرا او قليلا ، قائلة « دعنى من كل ذلك ، إنه عديم الفائدة »

حقا قالت ، إذ تبين لى أن داءها خفى كمين ، ليس مما ينجع فيه الطب ، ولا يصل إلى مكانه دواء .

ثم رأيتموها لا تزال تبكى لا ترقأ لها دمة . فحرت في أمرى ولم أدر ماذا أفعل ؟ فشرعت اشترى لها ضروب الحل والتحف أريد أن أسرها لعل فى عوامل السرور برا أو شفاء ، أقدم لها أسارو وقلائد وأقراطا ، وفساتين وبرانيط (من آخر طراز) وطيبا وعطرا ، ودهانا للشعر وهلم جرا .

وكل ذلك بلا جدوى وأيقنت أنها لا محالة هالكة .

فى ذات ليلة وقد لبثت طول يومها طريحة الفراش سألتنى أن أذهب فأحضر قسيسا ، فمضيت على الفور .

ولما جاء القسيس التفتت إلى وقالت :

« جان » سأوجه اعترافى إليك ، فإنى إليك به مدينة ، فأصغ إلى يا « جان » كن على يقين أنى ما ما خنتك قط ، لا قبل الزواج ولا بعده ، وإنى أشهد الله على ذلك وأشهد أبانا القسيس هذا الذى ما إخال إلا أنه يستشف الآن قرارة نفسى ، ويقرأ صحيفة ضميرى . أصغ إلى يا جان واعلم أنى إن أمت فذلك لأنى فجعت أيماء فجبة بفراق قصر البارون . فجبة لم أستطع عليها عزاء ، وليس لهذا من سبب سوى شدة صداقتى للبارون الصغير « رينيه » - شدة الصداقة - افهم ما

أقول - الصداقة البحتة المحضة التي لا شائبة . وانقطاع هذه الصداقة هو ما يذيني الآن ويبيدني ويمحوني ، ويشهد الله أنني فارقت وعلمت أنه فراق لا لقاء من بعده ، أحسست في نفسي ديب الفناء وأيقنت أنني هالكة ، ولو كنت نظرت له الله في أجلى ، وإنني أريد أن تبوح له بذلك يوما ما - بعد وفاتي - أقائل أنت له ذاك ؟ إنني أمتحلفك فاحلف . احلف يا جان أمام هذا القسيس . إن في ثقتي بأنك قائل له يوما ما ، إنني مت من حرقة فراقه « لبردا على كبدي المقروحة وسلاما ، أقسم على ذلك » ..

فأقسمت لها يا سيدى البارون ولم أحت في يمى .

ثم سكت وأثبت في عيني نظريه .

وإنك لن تستطيع أن تدرك فرط ما شفنى من الحزن لدى سماع هذا القصص من ذلك الرجل الذى قتلت زوجته ، من حيث لا أشعر ولا أدري .
قتلت له متجلجلا :

« وا أسفا عليك يا جان ! واحر قلبى عليك يا جان ! »

فوبس قائلا :

« لقد قضى الأمر يا سيدى البارون ، هذا حكم الواحد القهار ولا مرد لحكمه »

فشددت يدي على يده وأجهشت بالبكاء وسألنى قائلا :

« هل لك فى زيارة قبرها ؟ .. »

فطأطأت رأسى قبولا ، دون أن أنبس بكلمة .

وعلى ذلك نهض جان فأسرج مصباحا ، وتقدمنى إلى المدفن ففتحه ودخل وأنا على أثره . وهناك رأيت صليبا سودا ، وما ليث أن وقف على مربع من الرخام فوضع عليه مصباحه وقال « هاك قبرها » ثم أوما إلى أن أقرأ ما عليه من الكتابة ، فتلوت العبارة الآتية منقوشة على الرخام فى ضوء المصباح :

« هذا قبر لويزا مارييت زوجة جان فرانسوا - العفة الطاهرة النقية - عليها رحمة الله ورضوانه » ..

فجثونا راكعين على ضريحها والمصباح ما بيننا ، وكانت ليلة مطيرة ، فجعلت
شآبيب الغيث تضرب الرخام فترفض عنه رشاشا يتساقط على جوانبه الأربعة
فينسكب منها ويتحلب .

تأملت هذا ثم تذكرت ذلك الفؤاد الرقيق الثاوى تحت ذاك الحجر الأصم .
« فى ذمة الله ذلك القلب الذى كان يذوب رقة ويفيض إحساسا ! »
ومنذ تلك الليلة ، آليت على نفسي أن أجعل زيارة هذا الضريح فريضة سنوية
لا أقصر فى أدائها ولا أفرط ، وما زلت بذلك العهد وفيا .
على أنى لا أدرى لماذا يعرفونى الضيق والكرب فى حضرة ذلك الرجل « جان »
كأنى مجرم أثيم ، ولماذا لا تزال تبدو عليه سيما الذى قد تغمدنى بعفوه وإحسانه ،
ووسعنى بصفحة وغفرانه .

فهرس

٥	 ما تشاء
١٥	 الشريدة
٢٥	 اكسير الحياة
٣١	 تجربة
٤٢	 تأديب الزوجة
٥٢	 بايزيد
٦١	 تاجر البندقية
٧٧	 ربحانة الموت
٨٤	 الفراش العجيب
٩٥	 الصورة المحجوبة
١٠٥	 الحظوظ الثلاثة
١١٢	 الساحر
١١٧	 صفقة رابحة
١٢٦	 حديث امرأة
١٣٣	 راشيل
١٤٣	 الملك
١٥١	 لويزا

رقم الإبداع ٩٤ / ٣٨١٦

I.S.B.N : 977 - 11 - 0858 - 1

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - النجيلة



التمن ٣٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
معيد حوده السحار وشركاه